محمد شريف

تلميذ في مدرسة شعبية

(متتالية قصصية)

تلميذ في مدرسة شعبية

(متتالية قصصية)

محمد شريف

اسم الكتاب: **تلميذ في مدرسة شعبية – قصص**

تأليف: **محمد شريف**

تنسيق الكتاب وتصميم الغلاف: **محمد شريف**

رقم الإيداع:

الترقيم الدولي:

جميع الحقوق محفوظة للكاتب

يُمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية، أو إلكترونية، أو ميكانيكية، بما فيه التسجيل الفوتوغرافي، والتسجيل على أشرطة، أو أقراص مقروءة، أو أي وسيلة نشر أخرى، بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذنٍ خطِّيّ من الكاتب.

تلميذ في مدرسة شعبية

(متسلسلة قصصية)

تأليف

محمد شريف

القاهرة ٢٠٢٤

«الطريق»

اعتدت ولمُدة ثلاثة أشهر تقريبًا أن أعود إلى المنزل، بعد انتهاء اليوم الدراسي، برفقة صديقي حسام عبِداللطيف، وبعدما أرادت أمي أن تحملني جزءًا من المسئولية مع بداية العام الثاني لي في المدرسة الابتدائية الواقعة بشارع الأهرام.

لم يكن المنزل بعيدًا عن المدرسة كثيراً... كُنا نعبر شارع الأهرام ونسلك أحد الشوارع المؤدية لشارع الملك فيصل الرئيسي- الموازي لشارع الأهرام، ومنه إلى المنزل الواقع في شارع فرعي صغير، إلا أن هذا اليوم كان مختلفًا كثيرًا!

بدأ اليوم كغيره من الأيام بعدما خرجت من منزلي في تمام السابعة إلا ربع صباحًا وتوجهت لمنزل حسام المقابل لمنزلي، وأخذت أنادي عليه من أمام باب منزله المغلق بسلاسل حديدية غليظة.

لم تكـن شـقة حسـام تطـل عـلى الشـارع، فكـان عـليّ أن أنــادي بصــوت جَهْــوَرِيّ مرتفــع أتخيلــه وهــو يصـل إليـه في الـدور الرابـع بعـد أن صـعد -الصـوت- سـلالم المنـزل المتهالكـة وطـرق بـاب شـقته، إلا أن ذلـك لم يحـدث عـلى الإطـلاق، فقـد اعتـدت واعتـاد إيهـاب حلمـي-صـديق أخـي الأكـبر- الـذي يقطـن بالطــابق الأرضي بــنفس المنــزل أن يســتيقظ عــلى صــوتي المــزعج، ويفــتح لي البــاب بعينــين نصــف مغمضـتين وهـو يمنـع نفسـه مـن إطـلاق الشـتائم نحوي احترامًا وتقديرًا لأخي.

فـتح لي إيهـاب بـاب المنـزل فصـعدت إلى الطـابق الرابع، وطرقت بـاب الشـقة لأجـد حسـام هـو الآخـر يفـتح لي بعينـين نصـف مغمضـتين؛ فانتظرتـه أمـام بـاب شـقته نحـو ثلـث السـاعة ليخـرج لي وهـو يرتـدي بـاقي ملابسـه عـلى سُـلم المنـزل، ويتنـاول سـندوتش الجـبن الرومـي الـذي لم يكـن يفارقـه في طريقنا إلى المدرسة.

وصـلنا إلى شـارع فيصـل الرئيسي- لنجـده شـبه خـالٍ من التلاميـذ؛ فأدركنـا أننـا تأخرنـا عـلى موعـد طـابور

الصباح؛ فطلبت من حسام أن يسرع في خطواته حتى لا نتأخر على الحصة الأولى.

قررنا في ذلك اليوم ولسبب غير معلوم أن نسلك شارعًا جانبيًا آخر -في طريقنا من شارع فيصل إلى شارع الأهرام- غير الذي اعتدنا عليه، وفي منتصف الشارع الجديد لاحظنا وجود تلال صغيرة من الرمال، و"شكائر" أسمنت وجبس مرصوصة بعناية، وعرفنا بسهولة أنها خاصة بعمارة جديدة تحت الإنشاء.

في البداية أغرتنا تلال الرمال للعب عليها، فاستسلمنا ولعبنا نحو عشر دقائق قبل أن نشعر بالملل ونقرر خوض تجربة جديدة.

نظرنا إلى قطعة الأرض المنخفضة عما حولها والتي أعجبنا شكلها المميز بالحديد المتقاطع أفقيًا ورأسيًا مكونًا ما يعرف باسم "الحصيرة"، والتي توضع بعد الحفر كجزء من أساس العمارة، ونظرت إلى صديقي ونظر إليّ قبل أن نقرر العبور من فوق الحصيرة الحديدية من الشارع الجانبي الجديد إلى شارع جانبي آخر.

في البدايــة لاحظــت تخوفــه فقــررت أن أبــادر بـالنزول إلى الحصـيرة، وأخْـذ بعـض الخطـوات عليهـا حتــى يتشــجعِ ويتبعنــي.. وعنــدما وصــلت إلى منتصــفها تقريبــا التفــت للخلــف ونظــرت إليــه وصحت بصوت مرتفع:

- يلا.. هتفضل واقف كده؟!

نظـر إليّ وإلى الحصـيرة بـتردد ثـم قـاوم خوفـه ونـزل وأخـذ بضـع خطـوات قبـل أن تتعـثر إحـدى قدميـه ويَسّـقُط عـلى الحصـيرة ويُسـقط قلبـي معـه، وأنـا أقــف في مكــاني أحــاول التغلَــب عــلى ارتبــاكي وأشجعه على النهوض:

- قوم.. قوم ما تخافش.

لم يجــد أمامــه إلا أن يحــاول النهــوض، وعنــدما نجـح لم أجـد أمـامي إلا أن أشـجعه عـلى مواصـلة التقدم:

- يلا ما تخافش.

وجـدت أن الكلـمات وحـدها غـير كافيـة لتشـجيعه فتابعـت سـيري عـلى الحصـيرة بتركيـز شـديد حتـى لا

أسقط مثله.. ونجحت في الوصول إلى نهايتها والصعود للشارع الآخر.

صعدت والتفت نحوه لأجده تصبب عرقًا -رغم برودة الجو- فخفق قلبي أكثر وأنا أشعر بتوتره وأشاهد حيرته وتعثره:

- ما تخافش.

لم أجد ما أقوله غير ذلك، ولم يجد ما يفعله غير أن يستمر في مواصلة سيره وقد تحول توتره وقلقه إلى خوف حقيقي ظهر بوضوح على ملامحه التي انعكست على ملامحي وأنا أهرول ناحية شابين يسيران في الشارع لأطلب منهما المساعدة:

- والنبي يا عمو والنبي الحقني.

التفت إليّ الشابان قبل أن يرد عليّ أحدهما:

- مالك يلا؟

- أخويا وقع في الحفرة اللي هناك دي ومش عارف يطلع.

ظهـــر الجـــزع عـــلى وجههـــما وهـــما يتبعـــاني إلى "الحفـرة" ومـا أن وصـلنا إليهـا حتـى صـاح الشـاب الآخر:

- يخرب بيتك.. انت ايه اللي نَزِلَك هنا؟

كـدت أبـكي توسـلًا إلى الشـابين بعـدما شـعرت أنهـما قد يتخليا عن مساعدتنا عقابًا لنا على استهتارنا:

- والنبـــي يـــا عمـــو والنبـــي طلعـــه، ومـــش هنعمـــل كده تاني، معلش والنبي، معلش.

لم يـــردا عـــليّ وتحـــرك أحـــدهما ونـــزل إلى الحصـــيرة بخفـــة حســـدته عليهـــا، وفي أقـــل مـــن دقيقتـــين كـــان قـــد وصـــل إلى حســـام وحملـــه عـــلى كتفـــه، ومعـــه حقيبتـــه، وأخـــذ نفسًـــا عميقًـــا قبـــل أن يبـــدأ رحلـــة العـــودة ليســـلم حســـام بحقيبتـــه إلى صـــديقه الـــذي ساعده على الصعود من "الحفرة".

لم أكـــن أصـــدق أن حســـام نجـــا مـــن هـــذا المـــأزق اللعـين، ولم أجـد كلـمات مناسـبة أشـكر بهـا الشـاب البطـل الـذي أنقـذه، فوضـعت يـدي في جيبـي قبـل أن أمدها له بمصروفي الضئيل:

- شكرًا يا عمو والله

- ايه ده؟

- ده ربع جنيه.. مش معايا غيره والله.

- انت عبيط يلا!! يلا خد أخوك والحقوا المدرسة زمانكوا اتأخرتوا.

سعدت كثيراً بشهامته التي حافظت لي على مصروفي، وأخذت حسام وأسرعنا إلى المدرسة التي وصلنا إليها في منتصف الحصة الأولى لتعاقبنا مُدرسة الفصل عقابًا كنا نعرف أننا نستحقه.

مرت الثلاث حصص الأولى بشكلٍ طبيعي قبل أن نخرج إلى "الفسحة" فوجدتها فرصة مناسبة لأحكي لزملائنا عن مغامرتنا الصباحية، والتي أضحكتهم كثيراً، وجعلت من حسام مادة للسخرية لنحو ١٥ دقيقة قبل أن نعود إلى الفصل.

سَخَر الزملاء من حسام الذي لم يجد كلمات مناسبة يبرر بها خيبته، تلك الخيبة التي كادت

تُحَـولِ المغـامرة إلى كارثـة؛ فضـحك معنـا ليخفـي مشاعره الحقيقية تجاهي.

انتهى اليوم الـدراسي وخرجـت مـع حسـام مـن بـاب المدرسـة، وعنـدما سـألته عـن سـبب صـمته منـذ انتهـاء الفُسـحة توقـف فجـأة ونظـر إليّ نظـرات لم أفهم معناها، وقال بهدوء:

- أنا مش هروح معاك النهارده.

نظرت إليه بدهشة وأنا لا أستوعب ما يقوله:

- ازاي؟

- أصل أنا رايح عند خالتي... رَوَّح انت لوحدك.

أذهلني كلامه؛ فحاولت أن أتمالك أعصابي:

- أرَوَّح لوحدي ازاي؟

- عادي.. انت مش عارف الطريق؟

وقبـل أن أرد انصرـف مـن أمـامي، وعـبر شـارع الأهـرام مسرـعًا وأنـا واقـف أنظـر إليـه بـذهول، وأحـاول أن أقنـع نفسيـ بأنـه يمـزح معـي مزاحـا ثقـيلًا وسـيعود إليّ، وقلـت في نفسيـ: "هـو يضـحك

وســـيرافقني إلى المنـــزل كـــما تعودنـــا"... ولكنـــه لم يفعل.

تـــابع حســـام ســـيره، دون أن يلتفـــت إلى الخلـــف، ودخـــل في شـــارع جـــانبي.. واختفـــى. وتركنـــي أنظـــر حيـــث اختفـــى في انتظـــار أن يعـــود مـــرة أخـــرى وهـــو يضحك... ولكنه لم يعُد.

وجـــدت نفسيـ أقـــف أمـــام بـــاب المدرســـة وحيـــدًا مجـــبراً عـــلى الـــذهاب إلى المنـــزل بمفـــردي لأول مـــرة بعـــدما تخلـــت أمـــي عنـــي باتفـــاق مســـبق، وتخـــلى عني حسام بدون اتفاق.

دارت الـــدنيا مـــن حـــولي وأنـــا لا أجـــد مـــن أســـتغيث بـــه، فاستســـلمت لفكـــرة الضـــياع وأنـــا متأكـــد مـــن أننـــي لـــن أســـتطيع الوصـــول إلى المنـــزل بمفـــردي... ورغـــم ذلـــك عـــبرت شـــارع الأهـــرام وأنـــا أرتجـــف ودخلـــت في أحـــد شـــوارعه الجانبيـــة، ومـــن شـــدة الخـــوف انطلقـــت مسرـــعًا في طريقـــي المعتـــاد وأنـــا لا أشـــعر بالـــدموع التـــي تســـيل عـــلى وجهـــي، حتـــى فوجئـــت بـــأخي الأكـــبر -قادمـــا مـــن الاتجـــاه المقابـــل- جزعًا وهو يرى دموعي:

- مالك؟ في ايه؟

- تُهت.

- تُهت ازاي؟

- حسام سابني ومشي... بيقول رايح لخالته، وسابني.

- وبعدين؟

- مش هعرف أروح.. كنت هتُوه ومش هتلاقوني.

كنت أتحدث دون أن أتوقف عن البكاء، فأمسك أخي بيدي واحتضنني:

- ما تخافش.

وربت على كتفي محاولًا طمأنتي قبل أن يمسك يدي ويسير معي:

- احنا هنرَوَّح أهو.

هدأت قليلًا وسألته:

- انت كنت رايح فين؟

- كنت جاي لك... لما اتأخرت ماما قالت لي أروح أشوفك اتأخرت ليه؟ هو انت كنت بتجري كده ورايح على فين؟

- مش عارف.

وأشار إلى نهاية الشارع قائلا:

- مش عارف ازاي؟.. انت كده كنت مروح.

واستطرد:

- مش البيت من هنا؟! لما تخلص الشارع ده كنت هتلاقي نفسك في شارع فيصل.

- أه.

- انت لو وصلت شارع فيصل ماكنتش هتعرف تروح لحد البيت؟

صَمّت وأنا في حيرة من أمري، فتابع:

- انت كده كنت مروح من الطريق اللي بتمشي فيه كل يوم.

- أه.

تابعنا سيرنا وأنا متشبث بيده حتى وصلنا إلى شارع فيصل الرئيسي، وكنت قد هدأت وجفت دموعي، فسألني:

- ده شارع ايه؟

- فيصل.

- المفروض هنمشي ازاي عشان نرَوَّح؟

- هنعدي الشارعِ ونمشي كده شمال لحد المطعم، وبعد كده نروَّح عادي.

- طيب ما انت عارف الطريق أهو... يعني لو أنا ماكنتش جيت لك كنت هتعرف ترَوَّح عادي.

- أه بس...

قاطعني بهدوء:

- بس انت كنت خايف.

تمت

«النافذة»

كنت أشعر أنه ينظر لي دونًا عن باقي الأطفال، رغم أنه لا يعرفني ولا أعرفه، ذلك العجوز الذي يُطل علينا من نافذة الطابق الأرضي لمبنى تحت الإنشاء ونحن في طريقنا إلى ومن المدرسة.

لم يكن يفارق النافذة وكأنها قطعة منه أو هو قطعة منها! رجل عجوز تجاوز الستين عامًا يرتدي قميصًا رماديًا مهترئًا وكوفية بنية اللون، وتخفي التجاعيد ملامح وجهه، لم أر له ملامح، فقط تجاعيد خشنة، ولحية كثة غير مهذبة كانت كافية لإثارة الخوف في نفس طفل في الصف الثالث الابتدائي.

كان هناك أكثر من طريق يصل البيت بالمدرسة، ولكن الطريق الذي يوجد به مبنى الرجل العجوز كان أقصرها فاضطررت في معظم الأحيان أن أسلكه محتميًا بزملائي الذين خجلت من الإفصاح لهم عن مشاعر الخوف التي تنتابني كلما رأيت الرجل، ربما لكي لا أظْهِر

ضعفي أمامهم وأتعرض للسخرية، وربما لأنني لم أجد سببًا واحدًا لخوفي أقوله لهم، فالتزمت الصمت.

قررت في أحد أيام نهاية الأسبوع، ونحن في طريقنا إلى المنزل، أن أتحاشي النظر إلى المبنى بقدر الإمكان والإسراع في خطواتي وحث زملائي على الإسراع:

- يلا عشان ما نتأخرش.

هذا ما قلته لهم قبل خطوات من المبنى الذي يطل على ساحة فسيحة، فصاح زميلي أمجد علام باستنكار:

- نتأخر ايه؟ النهارده الخميس.

كانت إجازتنا الأسبوعية تبدأ فعليًا بعد انتهاء اليوم الدراسي يوم الخميس وتستمر حتى منتصف يوم الجمعة وربما حتى مسائه.

قلت له بتوتر:

- ما أنا أمي قالت لي ما تتأخرش وبتزعق لي.

كانــت حجتــي واهيــة ولم تقــنعهم، وقبــل أن أفكــر في حجـــة جديـــدة أكـــثر إقناعًـــا وجـــدت محمـــد عبـــدالحليم المعـــروف بيننـــا بحبـــه لكـــرة القـــدم ينـــدفع في نفـــس اتجـــاه ســـيرنا بعـــد أن لمـــح بعـــض زملائنـــا في المدرســـة الـــذين كـــانوا يســـتعدون للعـــب مباراة كرة في الساحة، وهو يصيح بحماس:

- أنا هلعب هجووووووم.

انـــدفع خلفـــه أمجـــد عـــلام، وحســـام عبـــداللطيف، وأحمـــد عـــزت، ووجـــدت نفسيـــ أقـــف وحيـــدًا مشدوهًا أنظر إلـيهم وقـد أفسـدوا مـا كنـت أخطـط لـــه، مـــن أجـــل مبـــاراة بـــدأت أمـــام منـــزل الرجـــل العجوز على الفور وكأنها كانت تنتظرهم.

وقفــت للحظــات أفكــر فــيما يجــب عــليّ فعلــه في هــذا الموقــف العصــيب، وكــدت أعــود مــن الطريــق لأســلك طريقًــا آخــر بعيــدًا عــن منــزل العجــوز، إلا أن أمجد علام صاح بي بصوت مرتفع:

- واقف عندك بتعمل ايه؟ يلا هنبدأ.

وجــدت نفسيــ دون تفكــير أستســلم لرغبــة أمجــد الـــذي قـــرر دون أن يأخـــذ رأيـــي أن أكـــون ضـــمن

الفريق في مباراة كرة قدم يطل عليها رجل عجوز كنت أحمل هم مروري من أمامه كل يوم.

جرجرت قدماي حتى وصلت إليهم وأنا أتجنب النظر في اتجاه النافذة، ووضعت حقيبتي المدرسية خلف مرمى فريقنا في أبعد نقطة ممكنة عن الرجل الذي كنت متأكدًا أنه يقف في النافذة ويحدق بي.

وعلى غير عادتي في المباريات اخترت أن ألعب في مركز حارس المرمى حتى أبقى بعيدًا متحفزًا لأي مفاجأة قد تصدر عن الرجل العجوز الذي خُيل إليّ في هذه اللحظات أنه يخفي سكينًا حادًا في قميصه ويتحين الفرصة حتى ينقض عليّ بها.

بدأت المباراة وأنا أتجنب النظر في اتجاه النافذة، وأحاول التركيز على الكرة، لا أنظر إلى النافذة ولا لأي لاعب سواء من فريقي أو من الفريق المنافس، فقط الكرة، ويبدو أن تلك الطريقة هي ما كانت تصنع حارس المرمى الجيد، فقد أبليت بلاًء حسنًا جعل زملائي يشيدون بي.

وعلى الرغم من انهماكي في المباراة إلا أنني لم أستطع أن أبعد صورة الرجل حامل السكين عن تفكيري، وفي إحدى اللحظات التي كان يتعرض فيها فريقنا لهجوم من الفريق المنافس، أفلتت مني نظرة في اتجاه النافذة فوقعت على العجوز الذي رأيته، أو ربما خُيل إلي، أنه يتحرك حركة ترجمتها على الفور إلى استعداده لترك النافذة والخروج للشارع.

شعرت بالدنيا تدور من حولي وكان من الطبيعي أن تمر الكرة من جانبي بعد أن سددها أحد لاعبي الفريق المنافس لتخترق مرماي.

أفقت على إحساسي بالفشل والذي فاقه إحساسي بالخوف الذي حركني على الفور فاستدرت للخلف دون وعي وركضت في اتجاه الكرة خلف المرمى وأمسكت بها وعدت بها خطوات متأنية في اتجاه الملعب، وعندما وجدت نفسي بجانب حقيبتي ألقيت بالكرة والتقطت الحقيبة من الأرض واستدرت للخلف وأطلقت ساقي للريح حتى وصلت إلى المنزل وأنا لا أصدق أنني نجوت من سكين الرجل العجوز.

وصلت إلى المنزل وأنا ألهث ولا أفكر في زملائي الذين تركتهم بشكل مفاجئ، ولم أستطع المذاكرة أو النوم في هذا اليوم وأنا أفكر فيما سيحدث غدًا.

ذهبت إلى المدرسة في اليوم التالي متأخرًا عن موعد طابور الصباح بعدما سلكت طريقًا آخر بمفردي بعيدًا عن الرجل العجوز، وبمجرد أن دخلت الفصل أخذت جولة بنظري باحثًا عن زملائي الذين تركتهم بالأمس، فوجدتهم جالسين في أماكنهم ينظرون إلي نظرات تساؤل حاولت تجنبها، وتهربت من استجوابهم بين الحصص حتى جاءت الفسحة بعد الحصة الثالثة فحاصروني بأسئلتهم فقلت لهم:

- ما أنا قلت لكوا أمي قالت لي ما تتأخرش، وبعدين احنا ماكناش متفقين اننا هنلعب الماتش ده.

رد علي أمجد باستنكار:

- واحنا من امتى بنتفق؟

قلت له بارتباك:

- الحتة اللي لعبنا فيها دي أصلا وحشة وأنا ماكنتش مستريح وأنا بلعب.

لم يقتنعوا بكلامي ولم يكن أمامهم ما يفعلوه بعدما أكدت لهم أنني لن ألعب في هذا المكان مرة أخرى ولن أسلك هذا الطريق أصلًا حتى لو أصروا جميعًا عليه.

مرت الأيام التالية ثقيلة عليّ وأنا أسلك طريقًا آخر وحيدًا في الذهاب والعودة من المدرسة بعدما تجاهلني زملائي وأصروا على طريق الرجل العجوز.

وبعد مرور بضعة أيام اعتدت على الطريق الجديد، وأصبحت علاقتي بزملائي مقتصرة على المدرسة فقط، أقابلهم عندما نذهب إلى المدرسة وبمجرد خروجنا نفترق، هم إلى طريقهم المعتاد وأنا إلى طريقي الجديد، حتى انتهى العام الدراسي وفاجأني أبي بالانتقال إلى حي آخر بعيد، وبالتالي تحويل أوراقي إلى مدرسة أخرى.

استقبلت الخبر بسعادة بالغة ليس فقط بسبب أن الحي الجديد أفضل، ولكنني وجدت انتقالنا

إليه وتغيير المدرسة هو أفضل حل لمشكلة الرجل العجوز.

ومرت علي السنوات بنجاحاتها وإخفاقاتها ونسيت قصة الرجل العجوز.

كان من الصعب عليّ بعد تخرجي من الجامعة أن أشتري شقة في نفس الحي الجديد لكي أتزوج بها، ولم أجد أمامي سوى العودة للحي القديم الذي كانت علاقتي به انقطعت تماما.

اشتريت شقة صغيرة بمساعدة والدي وتزوجت بعد تخرجي في الجامعة ببضع سنوات، وما هو إلا عام واحد حتى أصبحت أبًا.

مرت أربع سنوات سريعة حتى أصبحت قادرًا على اصطحاب ابني إلى الخارج بمفردنا وبعد أن توقف عن مطالبته لي بحمله كلما خرجنا من المنزل.

قررت في أحد الأيام أن أصطحب ابني إلى أحد محلات الملابس المعروفة والذي كان يقع بالقرب من مدرستي الابتدائية القديمة، ودون أن أشعر سلكت معه نفس الطريق القديم الذي كنت

أخاف من المرور به، وعندما اقتربت من الساحة التي لعبنا بها مباراة كرة القدم الأخيرة لي مع أصدقائي، نظرت إلى المنزل الذي كان تحت الإنشاء وقد تحول إلى عمارة شاهقة.

توقفت أمام العمارة وأنا أنظر إلى الدور الأرضي، فسألني ابني:

- مالك يا بابا؟

حملته وربت على صدره واحتضنته وقلت له:

- ما تخافش.. أوعى تخاف.

تمت

«كراسة حساب»

أرادني أبي أن أهتم بنظافة كراساتي المدرسية فقال لي :

- شايف البت سميرة كراساتها نضيفة ومنظمة إزاي! ليه ما تبقاش زيها!

ولم تكن سميرة مجرد زميلة لي في فصل ٢/٤ الابتدائي فحسب، بل كانت واحدة من أبناء جيراننا الأكثر إزعاجًا، وهو ما كان سببًا كافيًا لأن أكرهها وأنا أشعر أنَّها مراقبةً لي في المنزل والمدرسة، هذا بالإضافة إلى إصرار أبي على أن أستذكر دروسي معها لكي أحذو حذوها وأهتم بنظافة كراساتي.

اعتادت سميرة أن تهتم بكراسات المدرسة وتحرص على تنسيقها بشكل كان يستفزني لدرجة الحقد، وأنا التلميذ الذي اعتاد أن يسمع تعليقات سلبية عن كراساته من المدرسين الذين

كـانوا يتحملـون إهـمالي لهـذا الأمـر فقـط لأننـي متفـوق ولا أثـير المشـاكل في الفصـل، عـلى العكـس مـن سـميرة التـي كانـت تسـتنفذ طاقتهـا في العنايـة بشـكل كراسـاتها وتـنجح في مختلـف المـواد الدراسية بصعوبة بالغة.

ومـع إصرار أبي عـلى أن أسـتذكر دروسي مـع سـميرة، أخـذت منهـا ورقـة امتحـان الحسـاب الخاصـة بهـا وأريتهـا لأبي ليعـرف أن كراسـات سـميرة النظيفـة لم تشـفع لهـا لـكي تحصـل عـلى درجـة النجـاح في الامتحـان الـذي حصـلت أنـا فيـه على الدرجة النهائية.

فـوجئ أبي بالدرجـة التـي حَصَـلَت عليهـا سـميرة، ومـع ذلـك طـالبني بالاسـتمرار في مـذاكرة دروسي معهـا، فـما كـان منـي إلَّا أن وضـعته أمـام خيـارين لا ثالـث لهـما، إمـا المـذاكرة مـع سـميرة والاهـتمام بشـكل الكراسـات عـلى حسـاب درجـات الامتحانـات، أو عـدم المـذاكرة معهـا واسـتمراري في تفـوقي الـدراسي، فـما كـان منـه إلَّا أن وافـق عـلى الخيـار الثـاني، ومـع ذلـك اسـتمرت كراهيتـي لسـميرة، فأخـذت أهـتم بمسـتواي الـدراسي أكـثر

وأهمل نظافة الكراسات أكثر وأكثر حتَّى أصْبَحَت أشبه بمحتويات صندوق قمامة بحي شعبي.

ومر العام الدراسي كغيره من الأعوام وانتهى بتفوقي على سميرة وغيرها من التلاميذ بمختلف أنماطهم، ولم يكن هذا هو مصدر سعادتي فقط، فقد شعرت بسعادة أكبر عندما علمت أن أبي بصدد تحويل أوراقي من المدرسة إلى أخرى بعيدة عنها وقريبة من الحي الجديد الذي سننتقل للعيش فيه.

وعلى الرغم من ارتباطي ببعض أبناء الحي القديم وبعض تلاميذ المدرسة إلَّا أن الحي الجديد أبهرني بنظافته وهدوءه فقررت التخلص من حالة الحنين والحزن على فراق الأصدقاء الذين وعدتهم بأن أزورهم من وقتٍ لآخر، وهو ما حدث لمدة عامين متتاليين قبل أن تأخذني حياتي الجديدة وتبعدهم حياتهم التي لم تتغير.

كنت أزور أصدقائي في المناسبات، خصوصًا مناسبة عيد الفطر حيث كنت أذهب إليهم في آخر أيام رمضان وأقضي معهم الليل بأكمله

وأصـلي العيـد بـرفقتهم وقـد نخـرج إلى أي مكـان فقـير ولا نسـتمتع بسـبب حالـة الإرهـاق التـي تسيطر علينـا جميعًـا. وفي تلـك الفـترة رأيـت سـميرة أكـثر مـن مـرة ولم أعرهـا أي اهـتمام خاصـةً عنـدما عرفـت مـن صـديقي المقـرب أنَّهـا متعـثرة في الدراسة ولا تزال تهتم بنظافة وتنسيق كراساتها.

انقطعـت بعـد ذلـك عـن الحـي القـديم ولم تعـد تربطنـي بـه إلَّا بعـض الـذكريات السـعيدة مـع الأصـدقاء، وتلـك الـذكرى المؤلمـة مـع سـميرة التـي لم أعـد أهـتم بـالتفكير في مسـتقبلها الـذي كنـت متأكدًا من أنَّه مظلم حالك السواد.

وإن اسـتمر إهـمالي لنظافـة كراسـاتي، فـإن اهتمامـي بالحصـول عـلى درجـات مرتفعـة في الامتحانـات قـد أصـبح أقـل منـه في المرحلـة الابتدائيـة، فقـد بـدأت بعـد انتهـاء المرحلـة الإعداديـة في إدراك أن الحيـاة ليسـت فقـط درجـات مرتفعـة في الامتحانـات، بـل هي أكبر من ذلك... أكبر من ذلك بكثير.

بـدأت ألتفـت لـزملاء المدرسـة ومـا يرتـدون مـن ملابـس أنيقـة باهظـة الـثمن، وأسـتمع إلى

حكاياتهم عن الأماكن التي يذهبون إليها في الإجازات، وأرى سيارات آبائهم الفارهة التي يريدون تغييرها إلى سياراتٍ أغلى وأحدث.

وصاحَب شعوري الدائم بالعجز والفقر والإحباط والخجل، تدهور مستواي الدراسي بشكل كبير فلم أعد أهتم بتحقيق حلم أبي في الالتحاق بكلية الهندسة التي كانت تحتاج لمجموع لا يقل عن ٩٥% في حين حصلت أنا بالكاد على ٨٥% فالتحقت بكلية التجارة التي احتقرتها دومًا وسخرت ممن يلتحقون بها.

في أول يوم لي بكلية التجارة دخلت الجامعة مُنَكس الرأس وأنا لا أصدق أن درجاتي المرتفعة التي حصلت عليها في المرحلتين الابتدائية والإعدادية لم تشفع لي لدخول كلية أفضل من تلك التي كنت دائم السخرية منها. وبسبب حنيني لأيام التفوق فكرت في زيارة الحي القديم، وذهبت بالفعل بعد أن غلبني الفضول لمعرفة أخبار الأصدقاء والزملاء الذين تفوقت عليهم دومًا.

ذهبـت إلى أحـد أصـدقائي في الحـي القـديم وعرفـت منـه أنَّـه لم يحقـق نجاحًـا يُـذكر في دراسـته والتحـق بمعهـد صـناعي متوسـط، فسـعدت كثـيراً وتشـجعت وسألته عن سميرة فقال لي:

- سـميرة كَـبِرَت دماغهـا مـن التعلـيم وبتشـتغل دلوقت.

- بتشتغل إيه؟

- بتشتغل في شارع الهرم.

- بتشتغل إيه هناك؟

- في شارع الهرم.

- أيوه، بتشتغل إيه هناك يعني؟

ضـحك صـديقي ولم يـرد عـلى سـؤالي فضـحكت بدوري عندما فهمت ما يعنيه.

تركتـه وعـدت إلى المنـزل وأنـا أشـعر بنـوع مـن السـعادة بعـد أن عرفـت أن قطـار الفشـل الـدراسي لم يدهسـني وحـدي، فهـا هـو صـديقي قـد التحـق بمعهـد مـن المعاهـد المسـماة بـ "الصرـف الصـحي"، وهـا هـي سـميرة وقـد امتهنـت بيـع جـزء مـن

الشرف بشارع الهرم الذي أسمته الحكومة فيما بعد شارع الأهرامات ربما لتمحو الوقع السيئ في نفوس كل من يسمعون اسم "شارع الهرم" ذلك.

اعتدت كلما مررت بظروف سيئة وشعرت بالفشل والإحباط أن أذهب للحي القديم، وما أكثر الظروف السيئة التي مررت بها في الجامعة التي رأيت فيها ما عكر صفو حياتي أكثر من المرحلة الثانوية، فإذا كانت مشاهدة سيارات آباء زملائي الفارهة آلمتني في المرحلة الثانوية، فإن مشاهدة سيارات زملائي في الكلية ذبحتني وأصابتني بمزيد من الشعور بالعجز والإحباط، خاصةً عندما فشلت في مصادقة أي فتاة في الجامعة بسبب لهفتهن على مصادقة أصحاب السيارات ومدخني الحشيش.

ومع تدهور حالتي النفسية أكثر أصبح الذهاب للحي القديم لا يخفف من آلامي ومعاناتي مع الفقر وشعوري الدائم بخيبة الأمل، فانقطعت عن الحي وقررت عدم الذهاب مرة أخرى،

وأصـبحت سـميرة وغيرهـا مجـرد مـاضٍ لا يسـتحق التفكير.

ويبـدو أن الحيـاة قـررت أن تجعلنـي واحـدًا مـن أعـدائها الأبـديين فأخـذت تصـب عـليّ اللعنـات والخيبـات المتلاحقـة لدرجـة جعلتنـي أفقـد تـوازني وأعـيش بـلا هـدف وأنـا دائـم الشـعور بـالعجز، فأخـذت أهمـل دراسـتي الجامعيـة وأتغيـب عـن الامتحانات بعدما كنت أتغيب عن المحاضرات.

ومرت ثمان سنوات ثقيلـة قاتمـة حتّـى تخرجـت مـن الكليـة بتقـدير مقبـول وأنـا لا أتوقـع مسـتقبل أفضل من الحاضر الأليم.

وبـدأت رحلـة جديـدة مـن المعانـاة بعـد التخـرج مـن الكليـة وانتظـرت الخدمـة العسـكرية وأنـا لا أستبشر خيراً من تأديتها.

ويبـدو أن الحيـاة شـعرت أنَّهـا تقسـو عـليّ أكـثر مـما أحتمـل فرحمتنـي مـن تضـييع سـنة أخـرى مـن عمـري في الجـيش، وحصـلت عـلى شـهادة الإعفـاء وأنا أكاد لا أصدق نفسي.

استلمت الشهادة وأنا أهيئ نفسي لكي أخطو خطوة جديدة أحاول بها تعويض ٤ سنوات ضاعت من عمري في كلية القاع، وقررت دراسة اللغة الإنجليزية لكي أستطيع أن أجد وظيفة تحترم الجزء المتبقي من آدميتي، ومرّ على نحو ستة أشهر في دورة اللغة الإنجليزية المخفضة التي أعادتني من جديد لأيام التفوق والشعور بالتميز، وشعرت أن الحياة تريد أن تصالحني بعدما أهدرت كرامتي وإنسانيتي ومشاعري تحت أقدام كل من هب ودب.

انتهيت من الكورس وأخذت لطمة جديدة وأنا أبحث عن وظيفة عندما اكتشفت أن الحصول على وظيفة مناسبة لا يحتاج إلى دراسة اللغة الإنجليزية أو التفوق في أي مادة علمية، الأمر يحتاج فقط إلى (واسطة)، وشبكة من العلاقات الاجتماعية. واضطررت إلى التخلي عن حلم الحصول على وظيفة محترمة والعمل في مكتبة تبيع الكتب القديمة.

كان عملي الأساسي في المكتبة هو أن أبيع الكتب وأكتب الأوراق على جهاز الكمبيوتر، ولم تكن

تلك مشكلتي الأساسية في هذا المكان شديد الاتساخ، بل كانت المشكلة مع صاحب العمل نفسه الذي كان أبعد ما يكون عن شخصية صاحب المكتبة الراسخة في ذهني، والمتعارف عليها لدى الكثيرين، فقد كان يتسم بالإهمال الشديد، الإهمال بكل جوانبه، كان يهمل مظهره ونظافته الشخصية ومواعيده واتفاقاته، وكل شيء.

حاولت أن أتجنبه وأتناسى وجوده بقدر المستطاع ولكني كنت دائم الاحتكاك به باعتباري العامل الوحيد لديه والذي قرر أن يثبت كفاءته في المكان فأخذت في الاهتمام بنظافته وأعدت تنسيق الكتب بشكل يسهل عليّ العثور على أي كتاب يطلبه أيٍ زبون من الزبائن الذين كانوا ينزعجوا كثيراً من أسعار الكتب التي تقترب من أسعار الكتب الجديدة.

الأسعار لم تكن محددة، كان سيد حمودة، صاحب المكتبة، وحده هو من يحدد سعر أي كتاب، وعندما طلبت منه تسعير الكتب لكي

يُسَــهِل عــليّ عمليــات البيــع في عــدم وجــوده، لم يستجب لطلبي:

- في نــاس بتيجــي وحضرــتك مــش موجــود وأنــا مابقاش عارف أسعار الكتب.

- لو حد جه وأنا مش موجود اتصل بيا اسألني.

- هفضل كل شوية أتصل؟!

- هبقى أحاسبك ع المكالمات.

لم أقتنــع ولم أجــد ردًا مناســبًا عليــه فقــررت الاستســلام لنظامــه المبنــي عــلى عــدم وجــود نظــام. ولكنــه أبي أن يتركنــي أمــارس عمــلي بهــدوء، فبعــد أن أعــدت تقســيم الكتــب إلى مجموعــات وجدتــه يأخــذ بعــض الكتــب مــن أماكنهــا لعرضــها عــلى الزبــائن ويعيــدها إلى أقــرب رف إليــه، فــانفجرت بــه، في أحــد المــرات، غاضــبًا وأنــا أجــده يفســد التنسيق الذي بذلت فيه مجهودًا كبيراً:

- عــلى فكــرة أنــا أصــلًا مــش شــغلتي إنِّي أنَضَّــف المكــان وأرتــب الكتــب، المفــروض تجيــب حــد تــاني بتاع نضافة.

- يعني إيه؟

- يعنـي أنـا المفـروض شـغال تايبسـيت وببيـع كتـب بس.

- وإيه المشكلة لما ترتب المكان اللي بتقعد فيه؟

- وإنت ليـه مـا رتبتـوش قبـل مـا أنـا آجـي لمـا كنـت بتقعد فيـه؟! وبعـدين أنـا لمـا رتبتـه يعنـي، مـا إنـت بتاخـد الكتـب أهـو ومـش بترجعهـا مكانهـا، هفضـل أنــا أرتــب كــل شــوية؟! إنــت جــايبني مــن ســوق العبيد ولا إيه؟!

وعـلى الـرغم مـن سـعادتي البالغـة بصـفة الشـجاعة التـي اكتشـفتها في نفسي- وأنـا أعنفـه وأتحـدث معـه دون أي خـــوف، إلا أننـــي اضـــطررت في نهايـــة المشاجرة أن أترك له المكان غير آسف.

اقتنعــت تمامًــا بعــد أن تركــت العمــل لــدى ســيد حمـودة أن العمــل بـدون واسـطة لـن يعـود عـليّ سـوى بـالهم والمزيـد مـن الفقـر، فتوقفـت عـن البحـث عـن عمـل في إعلانـات الجرائـد المبوبـة، وعنـدما علـم أخـي الأكـبر حـاول أن يسـاعدني عـن طريــق أصــدقائه الــذين يعمــل أحــدهم في شركــة

شحن، يمتلكها ثري خليجي، ولها أفرع في أكثر من دولة عربية من بينها مصر.

- الشغل مواعيده رخمة شوية، من ٨ بالليل لـ٤ الفجر، والمكان برضه بعيد، بس مش مشكلة، لازم تتعب شوية.

هذا ما قاله لي أخي وهو يعرض عليّ وظيفة مُدخل بيانات في شركة الشحن التي يعمل بها صديقه غير المقرب، فقلت له:

- طب هرجع إزاي الساعة ٤ الفجر؟

- في عربية هتوصلك كل يوم، ويمكن المواعيد دي تكون كويسة برضه.

لم يكن أمامي إلَّا أن أقبل بتلك الوظيفة على أمل أن تقودني لما هو أفضل. وأدركت من يومي الأول أن صديق أخي لم يكن صادقًا في وصفه للوظيفة التي لم تكن محددة المواعيد:

- بص إنت ميعادك تيجي ٨.

- أه ما أنا عارف... وهمشي ٤.

- إمممممممم... بص هو المفروض إن إنت تمشي ٤، بس ساعات الشغل بيبقى كتير شوية وما ينفعش نمشي غير لما نخلص.

أدركت الفخ الذي وقعت فيه ولكنني لم يكن لديّ إلَّا الاستسلام لتلك الوظيفة الليلية المرهقة التي كانت تتطلب مني التواجد في الشركة يوميّا من الساعة الثامنة مساءً وحتَّى الثامنة صباحًا وربما بعد ذلك التوقيت. وأصبحت أعيش حياتي كمصاصي الدماء، أستيقظ طول الليل مع جزء من النهار، وأنام ساعات قليلة بالنهار قبل أن أستيقظ وأذهب لعملي المرهق الذي لم يكن ينتهي في أي يوم قبل الثامنة صباحًا.

وبعد أن أوشكت على الانهيار بسبب شعوري الدائم بالإرهاق والقلق جاء آخر الشهر وحصلت على مرتب أفضل بكثير من مرتب سيد حمودة وأقل بكثير مِمَّا أستحق، وتذكرت جملتي اللي قلتها لسيد حمودة في لحظة انفعال:

- "إنت جايبني من سوق العبيد ولا إيه؟!"

ويبدو أن العبودية كانت مُضرة على أسري فأكملت عملي الذي غير حياتي وجعلني أشبه بمصاصي الدماء بعد أن ذبلت وفقدت نحو ١٠ كيلو جرامات من وزني وأصبحت كائن ليلي ينزعج عندما يرى ضوء الشمس.

وأدركت الحقيقة المُرة التي تحكم علاقة العامل بالمكان الذي يعمل به في مصر، وهي أن المكان الذي تعمل لديه لا يعطيك راتبك الضئيل مقابل ما تقوم به من عمل، بل مقابل صحتك التي تفقدها وأنت تمارس هذا العمل الذي يدر عشرات الألوف من الجنيهات على السيد صاحب العمل.

كنت أفكر كل يوم، وبمجرد استيقاظي من النوم، ألا أذهب إلى العمل وأعود إلى حياتي الآدمية، أستيقظ في الصباح وأنام في المساء، ولكنني كنت أتراجع عندما أتذكر أنَّه لا آدمية بدون راتب، حتَّى وإن كان ضئيلًا.

ويبـــدو أن الحيـــاة عنـــدما تجـــدك مستســـلمًا لصـفعاتها فإنهـا تـتمادي وتوجـه لـك المزيـد منهـا، بل وربما تزيد عليها ركلات وطعنات قاتلة.

ذهبـــت في هـــذا اليـــوم إلى العمـــل متـــأخرًا عـــن موعـــدي بنحـــو نصـــف الســـاعة، فوجـــدت مـــديري الكـــاذب يهـــرع إليّ بمجـــرد دخـــولي الشركـــة التـــي كانت تشبه ورشة الميكانيكا:

- إنت إيه اللي أخَرَك النهارده؟

- عادي، الطريق كان واقف.

- واقف! ده إحنا اللي حالنا هيقف بسببك.

- ليه في إيه؟

- صاحب الشركة جاي النهارده.

- ليه؟

- هو إيه اللي ليـه؟ هـو كـل فـترة كـده بييجـي يـبص ع الشـغل ولـو لقـى حاجـة مـش مظبوطـة بتبقـى واقعـة سـودا، أدخـل غـير هـدومك بسرعـة وأقعـد مكانك.

تركتـه وتوجهـت لغرفـة تغيـير الملابـس وأنـا أحـاول أن أشـعر بـالقلق مـن زيـارة الـثري الخليجـي الـذي تخيلتـه بـدينًا بكـرش ضـخم ويرتـدي جلبابًـا ناصـع البيـاض، ولا يتسـم بـأي وسـامة وأبعـد مـا يكـون عن صفة الذكاء.

جـاءت السـاعة العـاشرة وأنـا منهمـك في ممارسـة عمـلي كالمعتـاد قبـل أن أفاجـأ بحالـة مـن الارتبـاك في المكـان وبعـض العـاملين يسرـعون في اتجـاه بـاب الشركة وعرفـت مـن مـديري أن الـثري الخليجـي قـد وصل.

لم أشـعر بـالقلق رغـم كـل مـا يحـدث حـولي، ولكـن كـان لـدي فضـول لرؤيـة هـذا الـثري، ربمـا لأضـحك عـلى مظهـره، أو لمعرفـة إذا كانـت توقعـاتي بالنسـبة له في محلها أم أنني أخطأت التقدير.

وتركــت مكتبــي وتوجهــت ناحيــة بــاب الشرـكة بهــدوء وفي طريقــي اســتمتعت بمنظــر المــديرين وهــم يهرعــون لاســتقبال ولي نعمــتهم وهــم يرتجفـون مـن الخـوف، وعـلى الـرغم مني توقفـت وأخـذت أتـابعهم بنظـري وشـعرت بسـعادة جَمـة

وأنـــا أرى الحيـــاة تأخـــذ لي حقـــي مـــنهم. وفجـــأة شـــعرت أن عقـــارب الســـاعة قـــد توقفـــت وتوقـــف معهـــا الـــزمن والأعـــين متجهـــة لـــذلك الرجـــل البـــدين الذي دخل من باب الشركة.

ظهر الـثري الخليجـي كـما توقعتـه تمامًا وكـما يظهـر في الأفـلام السـينمائية الهابطـة، لـذا لم تكـن رؤيتـه مفاجئـــة لي، بـــل كانـــت المفاجـــأة التـــي قصـــمت ظهـــري هـــي أنَّـــه كـــان يصـــطحب زوجتـــه معـــه، وبـــدافع الفضـــول دققـــت النظـــر إليهـــا وتعرفـــت عليها. وقـررت في تلـك اللحظـة أن أتـرك العمـل وأنـا أشـعر بالنـدم لأننـي لم أكـن أهـتم بشـكل كراسـاتي المدرسـية مثـل سـميرة التـي بـدأت حياتهـا العمليـة مـــن شـــارع الهـــرم حتـــى أصـــبحت زوجـــة الـــثري الخليجي صاحب شركة الشحن.

تمت

«قميص مشَجّر»

أطَّـل علينـا عمــرو ديــاب فِي صــيف عــام ١٩٩١ بصـورةٍ لـه وهـو يرتـدي قميصًـا مشـجراً علـى غـلاف ألبــومِ "متخــافيش" الــذي حقــق نجاحًــا بــاهراً لم يقتصر فقـط عـلى المبيعـات الكبـيرة، بـل امتـد إلى إقبــال الشــباب عــلى شراء قمــيص يشــبه قمــيص النجم الشاب.

اســتعار أخــي الأكــبر الألبــوم مــن أحــد أصــدقاءه، قبــل أن يــذهب لأبي، الــذي كــان يقــرأ جريــدة في صالة شقتنا المتواضعة، ويقول له بتردد:

- بابا.. عايز أشتري قميص جديد.

- قميص إيه؟

- قميص مشجر.

- مشجر؟!

- أيوة.. زي بتاع عمرو دياب.

أخذ أبي نفسًا عميقًا قبل أن يسأله:

- لازم يعني؟

صمَت أخـي؛ فـترجم أبي صـمته لـ "نعـم"، وقـال لـه مستسلمًا:

- طيب.

ولأننـي اعتـدت عـلى تقليـد أخـي، طلبـت منـه أن يقنـع أبي أن يشـتري لي قميصًـا مشـجرًا مـثلما سيشتري له.

وخـرج أخـي مـع أبي مسـاء يـوم خمـيس، لم أذهـب فيـه إلى مدرسـتي الابتدائيـة، وعـادا في وقـت متـأخر بعدما اشتريا ثلاثة قمصان مشجرة، أحدها لي.

ولأننـي لم أكـن أخـرج كثـيرًا، ولأننـي كنـت سـعيدًا بـالقميص، قـررت أن أذهـب بـه إلى المدرسـة يـوم السبت.. وليتني ما فعلت.

***

كنـت قـد اعتـدت في الأيـام الماضـية عـلى الوصـول إلى المدرسـة بعـد انتهـاء طـابور الصباح، إلا إننـي في ذلـك اليـوم كنـت متلهفًـا عـلى الوصـول مبكـرًا لـكي

يرى زملائي القميص، فوصلت بعد بدء الطابور بنحو عشر دقائق لأجد نظرات زملائي تحاصرني بعيون محملقة ترجمتها على الفور لإعجاب بالقميص الجديد.

لم يُعَلّق أي منهم على القميص وإن ظلت نظراتهم مصوبةً إليّ حتى بدأت أشعر بالتوتر.

وما هي إلا بضع دقائق حتى فوجئت بـ(أبلة فاطمة)، مُدرسة التربية الرياضية، وهي تندفع بين صفوف التلاميذ وتمسك بعضهم من ملابسهم وتجذبهم بقسوة ليخرجوا من الطابور وتشير إليهم بعصبية لكي يتوجهوا ناحية أحد أسوار المدرسة وهي تتمتم بكلمات لم أسمعها وإن أثارت توتري أكثر.

اعتدت أن أرى (أبلة فاطمة) وهي عابسة الوجه، إلا إنها بدت لي وقتها عابسةً أكثر من المعتاد، فنظرت إلى زملائي محاولًا فهم ما يحدث، ولم أجد منهم سوى نظرات غير مفهومة لقميصي الجديد. وعندما وصَلَت (أبلة فاطمة) إلى طابورنا كنت قد فهمت.. وعندما وقعت عيناها

الغاضـــبة عـــليّ، نظـــرت إلى الأرض مستســـلمًا، فاقتربـــت منـــي وصَـــوَّبَت إليّ نظـــرات أفزعتنـــي وقالت باستنكار وسخرية:

- وده إيه ده بقى إن شاء الله؟

مـــن شـــدة ارتبـــاكي لم أســـتطع الـــرد، فتابَعَـــت متسائلة:

- ده قميص عمرو دياب؟

اسـتجمعت بعضًـا مـن شـجاعتي وقلـت لهـا بصـوت متحشرج:

- أيوة.

قالت بسخرية:

- وجـاي المدرسـة بقمـيص عمـرو ديـاب ليـه يـا ضنايا؟ عندك حفلة؟!

ضحك زملائي بسخرية، فصاحت بهم:

- بس. مش عايزة أسمع نَفَس.

والتفتت إليّ وقالت:

- إحنا مش أكدنا يوم الخميس إن ماحدش ييجي بلبس مخالف؟

قلت لها برجاء:

- ما أنا كنت غايب الخميس.

ردت بلهجةٍ متوعدة خفق لها قلبي:

- آه. وكمان بتغيب من المدرسة؟ طب هو عمرو دياب بيقول إيه في الشريط الجديد؟

لم أفهم ما تعنيه، فالتزمت الصمت وقد غلبني ارتباكي، فقالت:

- بيقول متخافيش، صح؟

قلت لها وأنا أحاول أن أفهم:

- آه.

- طب يا حبيب قلبي، أنا كمان بقول لك متخافش، هتروح تقف مع زمايلك الحلوين اللي هناك دول، وهما ٥ عصيان هتاخدهم بمناسبة القميص الجديد. ولا أقول لك.. خليهم ١٠ عشان بصراحة القميص عاجبني.

لم أجد ما أفعله سوى أن أتوجه إلى حِيث يقف التلاميذ المخالفون؛ فجرجرت قدمي وتوجهت إليهم مشيعًا بنظرات الشماتة من زملائي الذين كنت أنتظر منهم نظرات إعجاب، ورغم شعوري بالإحباط إلا إن كلمات أغنية عمرو دياب كانت تتردد في أذنيّ وأنا في طرِيقي للانضمام للمخالفين، فسمعته يقول بصوتٍ جهْوري:

- *متخافيش أنا مش ناسيكي، متخافيش لو مين ناداني، مش حعيش من غير عينيكي، مش حعيش مع حب تاني تاني.*

واختلطت كلمات الأغنية المبهجة، بكلمات (أبلة فاطمة) الساخرة، فأفلتت مني ابتسامة كادت تختلط بالدموع التي بذلت مجهودًا كبيراً لكي أمنعها من الهروب من عيني التائهتين.

تمت

«أول الطابور»

لم تكن مشكلتي مع أحمد عزت تمام، زميلي في فصل رابعة/ ثاني الابتدائي، أنَّه يجلس في الصف الأول بينما أجلس أنا في الثاني، فعندما وصلت للسنة الرابعة الابتدائية كنت قد أصبحت أكثر نضوجًا لدرجة قبول الجلوس في الصف الأخير، أو حتَّى على الأرض بجانب صفيحة القمامة.

نشأت مشكلتي مع (تمام) بسبب نظام الانصراف من المدرسة، فبمجرد سماعنا لجرس انتهاء الحصة الأخيرة كان يحتم علينا النظام أن نقف في طابور أوله عند باب الفصل من الداخل، وكان (تمام) يصر على أن يكون دائمًا في أول الطابور، كان يحرص على ذلك كل الحرص، ويجهز حقيبته المدرسية ويجمع كل أدواته بها ويغلقها بعناية قبل سماع صوت الجرس بنحو ربع الساعة ليصبح على أهبة الاستعداد لينطلق ويحتل أول الطابور.

كنت دائماً أتعجب من إصراره على الوقوف في أول الطابور بشكل يومي لدرجة جعلتني أعتقد أن هناك فائدة كبيرة تعود عليه من ذلك، إلَّا أنني تراجعت عن هذا التفكير وسلمت بأنَّه -(تمام)- مجرد تلميذ تافه يجعله وقوفه في أول الطابور يشعر بالتميز.

وحاولت تجاهل الأمر برمته، إلَّا أن استمراره في هذا التصرف وإصراره على الوقوف أول الطابور زاد من استفزازي لدرجة جعلتني أكره المدرسة أكثر مِمَّا كنت أكرهها.

وذهبت إلى المدرسة في أحد الأيام وأنا لا أفكر إلَّا في كيفية إيقاف مهزلة أول الطابور، حتَى جاءتني الفكرة في بداية الحصة الأخيرة. وبمجرد أن طلبت المُدرسة مننا أن نعد حقائبنا انتظارًا لجرس الانصراف أوقعت أحد أقلامي على الأرض وتظاهرت بأنني ألتقطه، وجلست على الأرض ومددت يدي بخفة يحسدني عليها أي نشال محترف، وفككت رباط حذاء أحمد عزت ثمَّ رباط حذاء أحمد عبد الوهاب الجالس بجانبه، والذي كان يشاركه الجريمة. وبنفس خفة اليد

قمت بعقد رباط حذاء تمام مع رباط حذاء عبد الوهاب عدة عُقد يستحيل فكها في أقل من ربع ساعة.

وعدت إلى مكاني انتظارًا للحظة الانتصار التي نسمع فيها صوت الجرس، وأنا أنتشي عندما أتخيلهما وهما يسقطان على الأرض بينما أشاهد من يأخذ مكانهما.

وسمعنا الجرس قبل توقيته المعتاد ببضعة دقائق وأسرع تمام ورفيقه لأخذ مكانهما المعتاد وأنا أتابع لحظة السقوط التي جعلتني أترنح من السعادة المفرطة.

شاهدتهما وهما يسقطان على الأرض ويذهب مكانهما في أول الطابور لغيرهما، إلَّا أن المدرسة التي كرهتها دومًا رفضت أن تمنحني فرحة مكتملة، فقد أطلقت أستاذة فاطمة، مُدرسة التربية الرياضية، صفارتها المعروفة وطالبت المدرسين والمدرسات بإعادة التلاميذ إلى أماكنهم بسبب خطأ حدث في موعد إطلاق جرس نهاية اليوم الدراسي.

كنت أقف في الطابور وأنا أنظر إلى أحمد عزت تمام وأحمد عبدالوهاب الواقعان على الأرض، كتوأم ملتصق، والجميع مشغولون عنهما، وعندما صدر قرار رجوعنا إلى أماكننا أدركت الورطة التي أوقعت نفسي فيها، فالرجوع يعني أن تنتبه مُدرسة الفصل إلى التوأم الملتصق وتتساءل عمّا حدث!!

عدنا إلى أماكننا وظلت مُدرسة الحصة الأخيرة تقف أمام الفصل تتابع أستاذة فاطمة، بينما كان أحمد عزت تمام وأحمد عبد الوهاب واقعان على الأرض وهما يبدو عليهما الذهول مِمَّا حدث، وعندما نجحا في النهوض والجلوس عَلى مقعدهما نظر (تمام) للخلف وقال لي بغضب شديد:

- إنت اللي عملت كده.

ارتبكت بشدة وقلت له:

- أنا إيه! لألأ مش أنا ده هو... هو إيه اللي حصل؟

كـاد أحمـد عـزت يـبكي مـن شـدة الغضـب، وقـال لي وهو يحاول فك العقدة التي عقدتها:

- طب وربنا لأقول الأبلة عليك.

ارتبكــت أكــثر وأكــثر واقتربــت مــنهما وبــدأت في محاولــة فــك عقــدة الحــذائين الموضــوعين عــلى المقعد:

- يـا عـم تقـول إيـه بـس! مـافيش حاجـة، هـو إيـه اللي حصل بس أنا مش فاهم!

- ماشي ماشي.

- يا أحمد إنت زعلان ليـه؟ أنـا هفكهـا لـك أهـو مـع إني مش أنا اللي عملتها على فكرة.

شــعرت بأحمــد عــزت يريــد أن يشــتمني بأقــذع الألفاظ كـما أردت أنـا أيضًـا أنـا أشـتم نفسي. عنـدما وجـدت أن العقـدة مربوطـة بعنايـة شـديدة ومـن الصـعب فكهـا، فتصـببت عرقًـا مـن شـدة الارتبـاك، ولكنني حاولت تهدئة الموقف:

- قربت خلاص، هو مين ابن الكلب اللي ربطها كده؟ إيه يعني لما تقف كل يوم في أول الطابور! عادي يعني.

تأكد أحمد عزت، مع عبارتي الأخيرة، أنني أنا من عقدت رباطي الحذائين وبدأ في البكاء وهو يتوعدني:

- طب وربنا لأوريك.

ومن شدة ارتباكي وخوفي من المُدرسة لم أجد ما أقوله وأنقذتني صفارة مُدرسة التربية الرياضية التي انطلقت فجأة واعتبرتها صفارة الإنقاذ، فأخذت حقيبتي واندفعت بها خارج الفصل، دون انتظار الطابور، ووصلت إلى باب المدرسة ومنه إلى الشارع في وقت قياسي دون أن ألتفت خلفي. وعبرت الشارع الرئيسي- المزدحم المقابل للمدرسة واتخذت طريقًا مختلفًا للمنزل عن طريقي المعتاد الذي كنت أسير فيه كل يوم.

وصلت إلى المنزل بعد نحو عشر- دقائق من موعد الخروج من المدرسة وأنا يبدو عليّ الإجهاد، فنظرت لي أمي بدهشة:

- مالك؟

- أبدًا.

- جاي بدري يعني!

- عادي.

- هو إيه اللي عادي؟ اتخانقت مع حد ولا إيه؟

رددت عليها وأنا أحاول السيطرة على ارتباكي:

- حد إيه؟ لأ ما اتخانقتش، أنا عايز أدخل الحمام بس

ودون أن أنتظر ردها ألقيت حقيبتي على الأرض وتوجهت للحمام مسرعًا وعندما أغلقت بابه وقفت أمام المرآة ونظرت لنفسي وأنا التقط أنفاسي وأحاول السيطرة على انفعالاتي. ودون أن أشعر تحولت حالة الخوف والارتباك إلى ضحكات هستيرية حاولت السيطرة عليها؛ لكي لا تسمعني أمي.

خرجت من الحمام بعد أن هدأت قليلًا وغيرت ملابسي وتناولت وجبة الغذاء وأنا أفكر فيما

حدث اليوم في الحصة الأخيرة وما سيحدث غدًا في الحصة الأولى.

فوجئت في اليوم التالي، وبعد انتهاء فقرات الإذاعة المدرسية، بمدير المدرسة ينادي على اسمي في مكبر الصوت (الميكروفون) ويطلب مني أن أتوجه إليه، فشعرت بالدنيا تدور بي وتمنيت لو أستطيع الاختباء تحت الأرض بدلًا من الوقوف في آخر طابور الصباح بعيدًا عن أحمد عزت تمام الذي يقف في أول الطابور وينظر نحوي مثلما كان ينظر لي باقي التلاميذ نظرات هي مزيج من التساؤل والشماتة، نظرات تقول لي: اطلع بالذوق أحسن لك... مش هتعرف تهرب.

استسلمت لنظراتهم ووجدت نفسي- أسير ببطء تجاه أستاذ فتحي، مدير المدرسة، الذي كان يرتدي بدلة رمادية أنيقة ونظارة سوداء جعلته أشبه بضابط مباحث من المعروفين بقسوتهم الشديدة في التعامل مع المجرمين. وعندما وصلت إليه أشهر خرزانته الطويلة الرفيعة، التي لم تكن تفارقه، أمام عيني الدامعتين، ودون أن

يتفوه بكلمة واحدة أمسكني بيده اليسرى من ياقة قميصي- وأجبرني على الانبطاحِ على بطني أسفل علم مصر- الذي يرفرف عاليا في منتصف فناء المدرسة، وانهال بالخرزانة على مؤخرتي وأنا أزرف الدموع حزنًا على كرامتي التي فقدتها أمام تلاميذ المدرسة ومدرسيها.

ولم يكتفِ أستاذ فتحي بضربي على مؤخرتي فأمسكني من ملابسي- بعنف وأجبرني على الاستلقاء على ظهري ونزع فردتي حذائي عنوة وانهال على قدمي مثلما انهال على مؤخرتي.

وبقدر ما كانت الضربات تؤلمني في هذا الجو شديد البرودة بقدر ما شعرت بالخجل من جوربي الممزق الذي كان الحذاء يخفيه.

وفي سعيه لإذلالي أكثر وأكثر أمسك بي، من ملابسي- أيضًا، وأوقفني على الرغم مني، فشعرت أكثر بالألم في قدمي المتورمتين، وسحبني من ياقة قميصي- وهو يسدد لي ركلات عنيفة، في اتجاه أحمد عزت الذي يقف مبتسمًا في انتظار أن أصل إليه وأقبل قدميه. وفي هذه اللحظة،

وعنـدما وقعـت عينـي عـلى زميلتـي (مـي محمـد) التـي كانـت تقـف بجانـب أحمـد عـزت، قـررت أن أقـاوم، فأخـذت أصرخ وأنـا أحـاول الابتعـاد في الاتجـاه الآخـر بعيـداً عـن طـابور فصـلي اللعـين. وفجـأة... سـمعت صـوت أمـي تـوقظني مـن نـومي لكي أذهب للمدرسة.

فتحـت عينـي ونظـرت لأمـي وأنـا أكـاد لا أصـدق أننـي نجـوت مـن حفلـة التعـذيب المدرسـية المهينـة، وكـان مـن الطبيعـي أن أدعـي المـرض لـكي لا أذهـب إلى الحفلـة، ولكـن أمـي لم تصـدقني وأخـذت تحقـق معـي وتسـألنِي عـن سـبب التغـير الـذي طـرأ بي، فلـم أجـد مفـراً مـن إنكـار جميـع الاتهامـات التـي وجهتهـا أمـي لي والـذهاب إلى المدرسـة التـي كنـت أعـرف أننـي إن تغيبـت عنهـا يـوم فلـن أسـتطيع أن أتغيـب عنهـا طـوال حيـاتي لـكي لا يرسـلني أبي إلى الميكـانيكي للعمـل كصـبي ينادونه باسم (بلية).

وجـدت أنـه مـن الأفضـل أن أصـل إلى المدرسـة متـأ خراً وبعـد انتهـاء طـابور الصـباح وبـذلك أكـون قـد هربـت مـن الحفلـة المهينـة أمـام المدرسـة

بأكملها على أمل أن تقام حفلة التعذيب (ع الضيق) أمام تلاميذ وتلميذات الفصل حتَّى لو كانت من بينهم مي محمد التي كنت أحبها وأستمتع بتبادل النظرات معها من حينٍ لآخر.

خرجت من المنزل مضطرًا وتعمدت أن أتلكأ في مشيتي حتَّى أصل للمدرسة بعد انتهاء طابور الصباح، وعندما وصلت إلى باب المدرسة وجدته مغلقًا ففكرت في العودة إلى المنزل مرة أخرى أو التسكع في الشوارع حتَّى موعد الانصراف من المدرسة، ولكنني لم أكن معتادًا على (التزويغ) من المدرسة فقررت دخول المدرسة ومواجهة مصيري إذا فشلت محاولتي الأخيرة.

توجهت إلى باب المدرسة الخلفي واستأذنت عم طلعت، فراش المدرسة، لكي يسمح لي بالدخول، وعندما وافق فقدت مشاعر التعاطف التي كنت أكنها له بعدما رأيته أكثر من مرة وهو يتعرض للسخرية من بعض المدرسين والتلاميذ.

توجهت إلى فصلي اللعين وطرقت الباب برفق وفتحت الباب ونظرت إلى أبلة مديحة، مدرسة

اللغـة العربيـة، التـي أشـارت إليّ بالـدخول، ولمحـت، وأنـا في طريـق لمقعـدي الثـاني، المقعـد الأخـير فـارغ، فتوجهـت إليـه دون أن أفكـر وجلسـت بعيـدًا عـن أحمـد عـزت الـذي كـان يتـابعني بعينيـه بمجـرد أن دخلت الفصل.

جلســت في المقعــد الأخــير وحاولــت إقنــاعِ نفسيــ بأن عقـاب أبلـة مديحـة لي لـن يكـون قاسـيا، وحتّـى إن كـان فلـن يكـون بقسـوة مـا شـاهدته في كـابوس حفلة التعذيب.

ومــرت الحصــة الأولى دون أن يحــدث شيء، وتلتهــا الثانيـة فالثالثـة وخـرج جميـع التلاميـذ إلى الفسـحة في حين فضـلت أنـا الجلـوس في الفصـل وأنـا أفكـر في نظــرات أحمــد عــزت الصــامتة لي طــوال ثــلاث حصـص. وعنـدما لم أتوصـل لسـبب حاولـت طمأنـة نفسي أكثر، وقلت لنفسي:

- يمكــن اشــتكى لأبلــة مديحــة وهــي قالــت لــه الموضـوع مـش مسـتاهل... ويمكـن يكـون نسىـــ... إمممممــم... يمكــن أي حاجــة، المهــم إن مــافيش حاجة حصلت.

ومع اقترابنا من الحصة الأخيرة كنت قد أوشكت على الوصول لحالة الطمأنينة الكاملة والشعور بالامتنان لأحمد عزت الذي خذلني وجعلني أحمل له المزيد من مشاعر الكراهية والاحتقار عندما شاهدت أمه تدخل الفصل وتصافح أستاذ (برنس)، مدرس الحساب الذي لم يكن يختلف كثيراً عن مدير المدرسة.

كانت أم أحمد عزت ترتدي ملابس قصيرة وتضع الأصباغ على وجهها بشكل فج، وتعبث بشعرها الأصفر المصبوغ وتتمايل وتضحك ضحكات خليعة وهي تتحدث مع أستاذ برنس وتنظر إليّ من وقتٍ لآخر بعد أن أشار لها ابنها نحوي، وانتهت مَن حديثها مع أستاذ بِرنس وغادرت الفصل مع ابنها الذي نظر إليّ بشماتة وهو يتعلق بيدها.

تركني أحمد عزت لأستاذ برنس الذي بدا عليه أنه استمتع كثيراً بحديثه مع صاحبة الشعر المصبوغ. ولكي ينتشي أكثر أشار لي بأصبعه لأتقدم نحوه وسحب خرزانته، التي كانت أقصر قليلًا من خرزانة مدير المدرسة، ولم يتركني إلا

بيـــدين متـــورمتين لم أشـــعر بـــألمهما وأنـــا أفكـــر في صـاحبة الملابـس القصـيرة التـي جـاءت خصيصًـا في الحصـــة الأخـــيرة لمقابلـــة أســـتاذ بـــرنس المعـــروف بتقديره للجنس اللطيف.

ذهبت إلى المدرسـة في اليـوم التـالي الـذي مـر كغـيره من الأيام حتَّـى جـاء موعـد انصرافنا واسـتعد أحمـد عـــزت للوقـــوف في أول الصـــف، وعنـــدما ســـمعنا صوت جـرس انتهـاء اليـوم الـدراسي فوجئـت بزميلنـا المشـــاغب أمجـــد عـــلام يسرـــع ويقـــف في الصـــف الأول، ودون أن أفكـــر انـــدفعت نحـــوه ودفعتـــه بعيـدًا وأفسـحت الطريـق لأحمـد عـزت الـذي تـرك يـد أحمـد عبـد الوهـاب وتقـدم وأخـذ مكانـه في الصـــف الأول وهـــو ينظـــر لي بدهشـــة بعـــد أن أمســـكت يـــده ورفضـــت أن أتركهـــا إلَّا بعـــد أن خرجنا من المدرسة.

تركت يد أحمد عزت وابتسمت له وسألته:

- هي مامتك عاملة إيه؟

نظـــر إليّ بدهشـــة وهـــو لا يفهـــم ســـبب ســـؤالي، فتابعت:

- هو أنا ممكن أبقى آجي أذاكر معاك في البيت؟

- مش عارف... هسأل ماما.

- ماشي.

تمت

«الصف الأخير»

حــرص أبي ولمُــدةِ أربــع ســنوات -هــي الأولى لي في المدرســة الابتدائيــة- عــلى التأكيــد عــليّ بضرــورة الجلـــوس في الصـــفوف الأماميـــة في الفصـــل، باعتبارهــا صــفوف التلاميــذ المتفــوقين كــما هــو متعــارف عليــه بالنســبة لأوليــاء الأمــور ومــن ثَــم بالنســبةِ لنــا كتلاميــذ، لــذا كنــت أحــرص حرصًــا _لــيس شَــديدًا_ عــلى تنفيــذ تعليماتــه، فكــان الصــف الثــاني أو الثالــث -عــلى أقصىــ تقــدير- مــن نصــيبي بجانــب أحــد الــزملاء، حتــى جــاء ذلــك اليــوم الــذي عَلمَــت فيــه مُدَرِســة اللغــة العربيــة أننــا بصــدد زيَارة، غير مُرَحَّب بهِا، مـن مُوَجِـه المـادة الـذي كـان يُقَــيّم أداءهــا بنــاء عــلى مســتوانا نحــن التلاميــذ، وفجــأة سَرَت في الفصــل حركــة غــير عاديــة يشــوبها الارتباك.

طَلَبَــت المُدَرِســة مــن بعــض التلاميــذ -وأنــا مــنهم- تغيــير أمــاكن جلوســهم، فتلقيــت أمــرًا مفاجئًــا بــأن أجلــس في الصــف الأخــير، وهــو الأمــر الــذي اعتبرتــه

إهانةً بالغةً باعتبار أنني كنت أعد من المتفوقين، فكيف لها إذن أن تعاملني بمثل هذا الاحتقار وتطلب مني الجلوس في مكانٍ يعرف الجميع أنه مخصص للتلاميذ الفاشلين دراسيًا وأخلاقيًا!

كدت أعترض على ما طلبته مني، ولكن حالة الارتباك التي سادت الفصل لم تعط لي مجالًا لمناقشة المهزلة التي تحدث؛ فحملت حقيبتي على مضض وتوجهت للصف الأخير بخطوات ثقيلة وأنا لا أرى أمامي سوى خيالات لتلاميذ لم أستطع تمييز ملامحهم بدقة، حتى وصلت للصف الأخير وجلست مكان طالب فاشل وبجانب آخر مثله يُدعى أحمد أمين يونس.

وبدأت المُدَرِسة تشرح لنا خطتها الماكرة التي كانت تحاول بها أن تخدع الموجه، وهي أن تُجلس بعض التلاميذ المتفوقين في الصفوف الأخيرة، التي ينوي الموجه اصطياد فرائسه الفاشلين منها، وعندما يسأل واحدًا من المتفوقين يجيب، وعندما يسأل فاشلاً يقوم المتفوق الذي يجلس بجانبه بتلقينه الإجابة دون أن يلاحظ أحد.

كنت دائمًا ما أنظر إلى أحمد أمين يونس باعتباره شخص من عالم آخر، فملابسه دائمًا رثة غير مهندمة وحقيبته لا تختلف كثيراً عنها وعن وجهه الذي كنت أراه متربًا غير مريح على الإطلاق.

جلست بجانب أحمد أمين وأنا أتعجل مرور الدقائق ليأتي الموجه وينهي مهمته اللعينة، وجاء بالفعل وسأل أحمد أمين يونس سؤالاً استطعت أن ألقنه إجابته دون أن يلاحظني الموجه الذي سعد كثيراً بمستوى الفصل الذي استطاع أحد تلاميذ صفوفه الخلفية أن يجيب على سؤال منه، وفرحت المُدَرِسة وفرحت أنا أيضًا بقدرتي على أداء الدور المطلوب مني، وبدأت أستريح في جلستي، وأنظر حولِي لأكتشف المكان الذي ما كنت أتخيل نفسي جالسا فيه أبدًا.

نظرت إلى أحمد أمين وأنا فخور بقدرته على غش الإجابة مني بسهولة، وانتقلت بنظري لتلميذ آخر وآخر، انتقلت بنظري على جميع التلاميذ بما فيهم حسن محمد جمعة الجالس في مكاني، وبدأت أكتشف سحر مكاني الجديد الذي

أسـتطيع وأنـا جـالس فيـه رؤيـة كـل التلاميـذ ومتـابعتهم بشـكلٍ جيـد، كـما أنني أسـتطيع التحـدث مـع الـزملاء القـريبين دون أن يلاحظنـي أي مدرس أو مدرسة.

خـرج مُوَجِـه اللغـة العربيـة وهـو سـعيد مـن مسـتوى التلاميـذ، واصـطحبته المُدَرِسـة وعـادت إلينـا وأعـادت كـل تلميـذ إلى مكانـه، فوجـدت نفسي أجلـس في مكـاني الأصـلي مقيـدًا حتـى انتهـت الحصة.

انتهـى اليـوم الـدراسي وذهبـت إلى المنـزل وأنـا أفكـر فـيما حـدث لدرجـة أنني لم أسـتطع النـوم جيـدًا، فقـد كنـت أتعجـل الـذهاب للمدرسـة التـي لم أكـن أحبها كثيراً.

ذهبـت إلى المدرسـة في اليـوم التـالي وأنـا أتعجـل انتهـاء طـابور الصـباح الـذي كنـت أنظـر لـه دائمًـا باعتبـاره عقابًـا يوميًـا. وذهبنـا إلى الفصـل، وحرصـت عـلى أن أكـون أول مـن يدخلـه حتـى أستطيع الوصول إليه بسرعة.. إلى المقعد الأخير.

انـدفعت إلى بـاب الفصـل، وهرولـت ناحيـة المقعـد الأخـير وجلسـت عليـه وطلبـت مـن حسـن محمـد جمعـة أن يجلـس في مكـاني، جلسـت بجانـب أحمـد أمـين يـونس.. جلسـت وأنـا أتحسرـ عـلى الـثلاث سـنوات التـي أضـعتها حبيسًـا مـا بـين الصـفين الثـاني والثالث.

تمت

«الوجه الآخر»

كان السبب الرئيسي لكراهيتي لأحمد عبدالوهاب هو أنه تلميذ متفوق، كنت أعتبره المنافس الوحيد لي في فصل ٢/٤ بمدرسة السادات الابتدائية المشتركة، كان تفوقه كافيًا -بالنسبة لي- لكي أكرهه وأتعامل معه بتحفظ شديد لم يمنعني من الذهاب للعب معه أمام منزله بعد انتهاء أحد أيام الخميس الدراسية.

ورغم معرفتي بسبب كراهيتي لأحمد عبدالوهاب إلا إنني كنت دائماً أشعر أن منافسته لي في التميز أمام جميلات الفصل ليست وحدها وراء تلك المشاعر السلبية؛ فقد كان هناك سبباً خفيًا لم أدركه إلا عندما ذهبت معه في ذلك اليوم، لأرى شخص آخر غير الذي اعتدت على رؤيته في المدرسة.

كان يحرص (عبدالوهاب) على الظهور في المدرسة بمظهر الطالب المتفوق وما يلزمه ذلك من "كماليات" تُضاف إلى رصيده من الدرجات

المرتفعة التي يحصل عليها في الامتحانات الشهرية، لم يكن يتشاجر مع أحد تشاجراً معلنًا، أو يتلفظ بأي ألفاظ نابية من شأنها أن تخصم من درجات تميزه، وهو الحرص الذي تخلى عنه أثناء زيارتي له عند منزله؛ فوجدته منطلقًا متحررًا لدرجة الوقاحة والابتذال، سمعت منه ألفاظًا كنت أشمئز منها وأكاد أختنق عندما أسمعها في أي شارع أمر به، لذا عندما سمعتها منه كانت صدمتي كبيرة، فانتابتني مشاعر استنكار مختلطة بالذهول وعدم القدرة على تصديق ما يحدث.

ذهبت إلى منزلي متعجلًا والتفكير يكاد يقتُلني وسؤال واحد يُلح عليّ بشدة:

- كيف؟! كيف يكون أحمد عبدالوهاب -التلميذ الذي عرفته شديد الأدب- بهذه الدرجة من الوقاحة والانحطاط؟!

كنت أحاول أن أقنع نفسي أنه -أحمد عبدالوهاب- قد قرر في هذا اليوم أن يبدأ حياة جديدة عنوانها السفالة وقلة الأدب، على خلاف

حياته السابقة التي عرفته فيها، بذلت محاولات عدة لإقناع نفسي بذلك، ولكنها باءت جميعًا بالفشل.

ومر اليوم التالي طويلًا ثقيلًا، دون أن أصل لإجابة تريحني من عذاب التفكير في هذه المأساة، أسميتها مأساة لا لسببٍ سوى أنني لم أجد اسمًا ملائمًا لما يحدث.

وجاء يوم السبت الذي سأذهب فيه إلى المدرسة؛ فاستيقظت مبكرًا، بعد ساعات نوم متقطعة، وأنا أتعجل الذهاب لرؤية السافل المنحط كما تعجلت قبلها بأقل من يومين أن أتركه بعد أن شاهدته شخص آخر غير الذي عرفته.

دخلت من باب المدرسة وأنا أتفحص الوجوه باحثًا عنه ولم أجده، حتى انتهى طابور الصباح وذهبت إلى الفصل مع باقي الزملاء، على أمل أن أجده جالسًا في انتظارنا، وهو ما لم يحدث.

كاد رأسي ينفجر مما أسميته سوء حظ، ومضت الدقائق الأولى من الحصة رمادية ثقيلة، حتى

دخل الوقح الفصل متأخراً، وسمحت له المُدَرِسة بالجلوس دون عقاب، معتبرةً أن رصيده من التفوق الدراسي و"الأخلاق الحميدة" يسمح له بما هو أكثر من التأخير.

بعد مرور نحو عشر دقائق من جلوسه، استأذَنَت المُدَرِسة للخروج من الفصل تاركَة السافِل يقف أمامنا لكي يكتب اسم من يُحدِث شغباَ في غيابها، وهو ما أصابني بالحنق الشدَيد معتبراً إسناد تلك المهمة له الآن إهانة بالغة لي أنا بالذات.

مرت دقائق قليلة وأنا أكاد أموت غيظًا، وأحاول أن أستجمع شجاعتي لأقف أمام كل التلاميذ المغيبين؛ لأعلنها صراحةً؛ لأكشف للجميع حقيقة هذا الوغد المخادع وأحرضهم على الثورة ضد وضعي البائس، إلا إن القدر الذي استجمعته من شجاعتي لم يتح لي سوى أن أكسر قواعد المُدَرِسَة وأتحدث بصوت مرتفع، على نحو ما، مع (لا أحد)، ليهددني التلميذ "المتميز" بأنه سيكتب اسمي في ورقة المذنبين، وهو ما جعلني أستشيط غضبا وأقف متحديًا ساخطًا لأسبه بأمه سبابًا

مـن تلـك النوعيـة القـذرة التـي سـمعتها منـه يـوم الخميس البائس، قُلتها له معلنًا التحدي:

- مالكش دعوة بيّا يا ابن الـ ****

وكانــت المفاجــأة للجميــع، للتلاميــذ، وللمُدرســة عنــدما عــادت، ولأبي عنــدما تــم اســتدعاؤه للمدرسـة، وحتـى أحمـد عبدالوهاب نفسـه فـوجئ مـن سـبي لـه بهـذا اللفـظ في المدرسـة، وداخـل الفصل، وعلى مرأى ومسمع من الجميع.

مرت بضـعة أيـام ثقيلـة بائسـة بعـد أن سـببته بأمـه بـذلك اللفـظ _الـذي لم أكـن أعـرف معنـاه_ لأصـبح محـل احتقـار الجميـع، ويصـبح هـو في مكانـة أعـلى مما كـان عليـه، فهـو التلميـذ المتفـوق المـؤدب الـذي لا يرد على إساءة وقحة من شخص سافل مثلي.

تمت

«ساعة يد»

كان أقصى طموحنا في ذلك الوقت ألا يمر يومنا الدراسي دون أن نرى إنجي.. فقط نراها، فلم نكن نجرؤ على أن نطمح لما هو أبعد من ذلك..

لم تكن إنجي على قدر كبير من الجمال ولكن سمعتها كفتاة لعوب جعلتنا نراها أجمل فتاة في مدرستنا الابتدائية - الإعدادية المشتركة.

وإذا اقترن سقف طموحي المنخفض بالقليل من الشجاعة، فإن هشام وحيد، صديقي وزميلي في فصل ٢/٥ الابتدائي، كان أكثر مني جرأة ليقترب من إنجي في أحد أيام الخميس وبعد خروجنا من المدرسة ويسألها بمنتهى الشجاعة:

- الساعة كام؟

لترُد عليه بلا مبالاة وقبل أن تتابع سيرها:

- ما أعرفش.

ورغم أنني كنت أرى يد إنجي اليمنى وهي تتزين بساعة سوداء أنيقة، إلا إنني لم أهتم

بفكرة تجاهلها لهشام الذي أجبرني بشجاعته على أن أنظر إليه نظرة إعجاب وتقدير، فأردت أن أصيح به في منتصف الشارع:

عليّ النعمة انت أجدع من أبويا.

تمت

«الامتحان»

- وليك نفس تروح تلعب؟! ده بدل ما تعيط على خيبتك؟! مش مكسوف من نفسك؟!

هكذا بدأ أبي وصلة توبيخ عنيفة لي يوم امتحان العلوم الذي جاء أصعب مما تخيل جميع الطلاب. وأمام وصلة التوبيخ التي كنت متأكدًا من أنها ستمتد لعدة دقائق لم يكن أمامي سوى الهروب منها بخيالي، ليس فقط بهدف الهروب ولكن لمحاولة فهم سبب حالة الغضب العارمة التي تملكت من أبي وجعلته يوبخني بهذا الشكل العنيف.

***

بدأ اليوم كغيره من أيام الامتحانات بمزاج متعكر من النوم المتقطع والقلق الطبيعي لطالب في الصف الثاني الإعدادي كان لديه طموح بالحصول على مجموع يزيد على تسعين بالمائة رغم أنه لم يجتهد بالقدر الكافِ.

خرجت من المنزل في الثامنة صباحًا ومررت بمنزل أحد أصدقائي، ومنه إلى منزل صديق آخر قبل أن نتوجه إلى المدرسة التي تبعد عن المنزل بنحو عشرـ دقائق سيراً على الأقدام، وفي الطريق عبّر كل منا عن قلقه المعتاد من الامتحان، ولكننا حاولنا -في نفس الوقت- أن نُطمئن بعضنا بعضًا.

وصلنا إلى المدرسة وقد هدأنا وتناسينا الامتحان وأخذنا نمزح كعادتنا مع بعضنا ومع باقي الزملاء؛ حتى جاء موعد الامتحان فتوجهنا إلى اللجان وقد بدأ القلق يتسلل إلينا من جديد.

جلست في اللجنة، وبمجرد أن تسلمت ورقة الأسئلة نظرت فيها ومن شدة خوفي رأيتها ضبابية، ولم أستطع تمييز أي كلمة مكتوبة فيها؛ فأخذت نفسًا عميقًا ونظرت حولي وانتظرت لنحو دقيقتين قبل أن أنظر إليها من جديد، لأرى الأسئلة بصعوبة.

فتحت ورقة الإجابة وبدأت أتذكر ما حفظته من المادة، وعندما انتهيت من الإجابة على السؤال

الأول، الــذي لم يكــن صــعبًا، بــدأ القلــق ينصرــف عني.

ويبــدو أن القلــق افتقــدني سريعًــا؛ فعــاد إليّ مجــددًا عنــدما قــرأت الســؤال الثــاني الــذي قــررت تأجيــل الإجابــة عليــه عنــدما وجدتــه صــعبًا؛ ولكننــي اضــطررت للعــودة إليــه سريعًــا بعــدما وجــدت أن الثالث والرابع أصعب منه بكثير.

قــرأت الســؤال الثــاني بتركيــزٍ أكــثر وتأكــدت أنــه صعب فعلًا، وقبـل أن أحـاول الإجابـة عليـه نظـرت حــولي فوجــدت الوجــوه شــاحبة بعضــها يتصــبب عرقًــا -رغــم بــرودة الجــو- فأدركــت أن المشــكلة ليســت مشــكلتي وحــدي؛ فشــعرت بــبعض الطمأنينـة وبـدأت في الإجابـة عـلى الأسـئلة بقـدر مـا استطعت.

انتهــى الامتحــان وخرجــت مــن اللجنــة ملتزمًــا الصــمت وأنــا أترقــب رأي زمــلائي فيــه. ويبــدو أن الـزملاء اتخـذوا نفـس قـراري، فأخـذنا ننظـر لبعضـنا البعض ملتمسين ولو كلمة.

- امتحان ابن ستين كلب!

قالهـا زميلنـا المتفـوق أحمـد فكـري؛ فأسرعنـا إليـه بخطـواتٍ متلعثمـة وكـدنا نحتضـنه لقطعـه حالـة الصـمت المخيفـة التـي التزمنـا بهـا، وقلـت لـه بلهفة:

- امتحان صعب، صح؟

- جدًا.

أردت أن أسمع منه المزيد؛ فقلت له بخُبث:

- في مسـتوى الطالـب الـلي هـو فـوق المتوسـط ده، صح؟

رد عليّ باستنكار:

- فـوق متوسـط مـين؟! الامتحـان ده عـايز واحـد عبقـري عشـان يحلـه، أنـا أتحـدى أي حـد يقـول إنـه حل كل الأسئلة صح.

أردنـا أن نحمـل أحمـد فكـري عـلى الأعنـاق ونطـوف بـه في جميـع أرجـاء المدرسـة، ولكننـا فضَّـلنا الخروج والابتعاد عن المكان المشئوم حتى نهدأ.

فجَّـر أحمـد فكـري الثـورة المكتومـة بـداخلنا؛ فتشـجعنا جميعًـا وأطلقنـا العنـان لألسـنتنا

السليطة وأخذنا نسب ونلعن فيمن وضع أسئلة الامتحان الذي أجمعنا كلنا على أنه غاية في الصعوبة.

- يلا نروح نلعب كورة.

قرر أحمد فكري أن يلعب دور القائد الملهم للمرة الثانية في أقل من عشرين دقيقة؛ فاقترح علينا أن نتناسى الامتحان ونذهب للعب كرة القدم في الساحة التي تقع بالقرب من منزله، فوافقنا دون تفكير، ربما لكي نكافئه على كسر حالة الصمت بعد الامتحان.

في طريقنا إلى ملعب الكرة لم أستطع أن أنزع من رأسي الامتحان بشكلٍ كامل، إلا إنني عندما بدأت ا للعب مع زملائي نسيت الأمر تمامًا، وحتى عندما تذكرته بعد انتهائنا من اللعب تعاملت معه بلا مبالاة وقلت لنفسي:

- وإيه يعني؟ الامتحان كان صعب علينا كلنا مش أنا لوحدي.

فكرة وقوع البلاء على الجميع أراحت ضميري كثيراً وجعلتني أهدأ وأشعر وكأن شيئًا لم يحدث،

إلا أ ن أبي كـان لـه رأيًـا مختلفًـا، فـما إن وصـلت إلى المنزل وأخبرته بما حدث في الامتحان، سألني:

- وإيه اللي أَخَّرك لحد دلوقت؟

فتحـت عـلى نفسي أبـواب الجحـيم دون أن أدري عندما قلت له:

- أبدًا.. رُحنا لعبنا كورة شوية بعد الامتحان.

كـان مـن الطبيعـي أن يـوبخني أبي ويتهمنـي بالتقصـير في المـذاكرة عنـدما قلـت لـه إن الامتحـان صـعب، وعنـدما علـم أننـي ذهبـت للعـب الكـرة بعد الامتحـان وجـدها فرصـة ذهبيـة لـكي يزيـد مـن جرعـة التـوبيخ التـي اسـتمرت لأكـثر مـن عشرـين دقيقـة جعلتنـي أنـدم عـلى أننـي أخبرتـه الحقيقـة، وأنـدم أكـثر عـلى اسـتهتاري وتعـاملي مـع فشـلي بالامتحـان بـلا مبـالاة؛ فانتهـت وصـلة توبيخـه لي، وبـدأت وصـلة تـوبيخي لنفسيـ واسـتمرت حتـى الساعات الأولى من صباح اليوم التالي.

- ازاي عملـت كـده؟ ازاي أحـل وحـش في الامتحـان وأروح ألعـب كـورة عـادي كـده؟! هـو أنـا إيـه الـلي حصـل لي؟ أنـا غلطـت غلطـة كبـيرة جـدًا.. مـش

ممكن أعمل كده تاني، مش ممكن أسامح نفسي بعد اللي عملته ده، هو أنا خلاص بقى عندي لا مبالاة؟!

طوال الليل وأنا أتقلب في سريري ولا أستطيع أن أنام ساعة واحدة، وأنا أشعر بتأنيب الضمير وألوم نفسي على ما فعلته، وكان من الطبيعي أن أنتهي من باقي الامتحانات في الأيام التالية، وأعود إلى المنزل فوراً ولا أذهب للعب الكرة حتى لو كان الامتحان سهلًا، وحتى لو ألح عليّ زملائي كي أشاركهم اللعب.

مرت عليّ السنوات، بنجاحاتها وإخفاقاتها، وأنا أحذر نفسي دائمًا من التعامل مع أي أمر بلا مبالاة مثلما فعلت مع امتحان العلوم، حتى انتهيت من الدراسة الجامعية بكلية التجارة التي التحقت بها بعد فشلي في الحصول على مجموع كبير يؤهلني للالتحاق بكلية الهندسة، وبدأت رحلة البحث عن وظيفة، وهي الرحلة التي جعلت مني خبيراً في المقابلات الشخصية التي فشلت كثيراً في اجتيازها.

- أهـم حاجـة عشـان تعـدي الإنترفيـو إنـك تبقـى واثـق في نفسـك ومـش خـايف.. لـو الـلي بيعمـل معاك الإنترفيو شافك مُرْتَبِك هيسقَّطك.

سـمعت هـذا النصـيحة كثـيراً مـن أشـخاص أعـرفهم وآخـرين لا أعـرفهم عنـدما حكيـت لهـم عـن فشـلي المتكـرر في اجتيـاز المقـابلات الشخصـية والحصـول عـلى وظيفـة؛ فقـررت أن أتعامـل مـع المقـابلات الشخصية بلا مبالاة.. ولكنني فشلت.

تمت

«مرض نادر»

فجأة وبدون أي مقدمات سألنا محمد إدريس، زميلنا في فصل ثالثة رابع الإعدادي، خلال الاستراحة بين الحصتين الأولى والثانية:

-عارفين إيه هي أطول كلمة في اللغة الإنجليزية؟

نظرنا إليه بدهشة وتساؤل فقال بحماس وهو يُخرِج ورقة صغيرة من جيب بنطاله ويقرأ ما بها بتلعثم:

- Pneumonoultramicroscopicsilicovolcanokoniosis

نظرنا إليه بدهشة ونحن عاجزين عن فهم الكلمة أو حتى نُطقها، فقلت له بارتباك:

- قولها تاني كده

فنظر محمد إدريس -الذي كنا نناديه بسخرية باسم "إدرة"- في الورقة وقال بنفس التعلثم:

- نيومونواولترامايكروسكوبيكسيليكوفولكينوكانايوسيس

وبعد لحظات من الصمت تشجع زميل لنا وسأله:

- دي معناها إيه دي؟

فأجاب محمد إدريس وهو ينظر في الورقة مرة ثالثة:

- السحار البركاني السيليسي الرئوي فائق الصغر.

فنظرنا إليه صامتين، فتابع بحماس وهو يقرأ من الورقة:

- الكلمة دي بتعني مرضًا رئويًا ناجمًا عن استنشاق الرماد الناعم جدًا وغبار الرمال.

نظرنا إلى بعضنا البعض وإلى محمد إدريس ونحن عاجزين عن الكلام، إلا أنا أعيننا كانت تنطق بسؤال تلقائي:

- هو انت بتتكلم جد ولا بتهزر يا إدريس؟

وقبل أن يتشجع أي منا ويوجه إليه السؤال بشكل صريح، دخلت مُدرسة اللغة الإنجليزية إلى الفصل فجلس كل منا في مكانه.

بدأت ميس سهام تشرح الدرس الجديد وفجأة توقفت وأشارت إلى محمد إدريس وسألته:

- إيــه الفــرق بـــين good morning و good evening؟

وقف محمد إدريس بقلق ونظر إليها وهو يفتح فمه ببلاهة ولم ينبس ببنت شفة، وأخذ ينظر حوله ملتمسًا أية مساعدة.

كنت أجلس في المقعد الخلفي له أتابعه وهو عاجز عن الإجابة على السؤال، وكعادتها أخذت ميس سهام تصرخ بأعلى صوتها:

- مش عارف الفرق بين good morning وgood evening والمفروض إنك في تالتة إعدادي؟ انت هتفضل نايم في العسل كده لحد امتى؟ انت اللي زيك المفروض يرجع أولى إعدادي تاني.

واستدركت بنفس العصبية:

- أولى إعدادي إيه؟ ده انت المفروض ترجع أولى ابتدائي لإن شكلك ضايع في العربي كمان، حرام عليك يا إبني اللي بتعمله فيا ده!! حراام بجد.

كـان مـن الصـعب إسـكات مـيس سـهام إذا بـدأت في الصراخ، فقـد كانـت هـذه هوايتهـا المفضـلة قبـل أن تأخـذ عصـاها الطويلـة وتنهـال بهـا عـلى أحـد التلاميـذ لتهـدأ وتعـود إلى حالتهـا الطبيعيـة، لـذا لم نكن نملك سـوى انتظـار انتهاءهـا مـن تـوبيخ محمـد إدريس، وعندما انتهت قالت وهي تنظر حولها:

- فـين العصـاية؟ هتاخـد ٢٠ عصـاية عشـان تفـوق لنفسك.

كـان رقـم ٢٠ مبالغًـا فيـه، فاندهشـنا وارتعـد محمـد إدريـــس وهـــو يفـــرك يديـــه البـــاردتين اســـتعدادًا للضرب.

شـعرت أني أسـمع صـوت ضربـات قلبـه المرتجـف فانحنيـت قلـيلًا إلى الأمـام، ودون أن تـراني مـيس سهام، وهمست له بصوت منخفض:

- ولا يـا إدرة، قـول لهـا أطـول كلمـة في اللغـة الإنجليزية وهي تسيبك يالا.

تمت

«الجاسوس»

بدأ ذلك اليوم من أيام شهر ديسمبر الباردة كغيره من الأيام الدراسية الثقيلة، فقد وصلت مع اثنين من أصدقائي، محمد صفوت وسامح عبدالمجيد، إلى مدرستنا الإعدادية متأخرين كالعادة وبعد انتهاء طابور الصباح، وعندما دخلنا الفصل استقبلنا وصلة "التهزيق" من أستاذ عوض، مُدرس العلوم، ونحن نبتسم بلا مبالاة.

ومرت الحصة الأولى والثانية بشكلٍ روتيني، وجاءت الثالثة لتدخل الفصل "ميس" سهام، مُدرسة اللغة الإنجليزية، والتي طلبت مني في منتصف الحصة أن أصعد للدور الثاني لأحضر لها العصا من أستاذ سيد، الأخصائي الاجتماعي، الذي وجدت مكتبه مغلقًا.

عُدت إلى الفصل بوجه شاحب وأخبرتها أنه غير موجود بمكتبه، وجلستِ في مكاني بجانب زميلي،

رامـــي أبـــوالعلا، الــذي قــال لي هامسًــا بعــد بضــع دقائق من الصمت:

- مالك؟

- أستاذ سيد ماجاش.

- وإيه يعني؟

- لاقيــت مكتبــه مقفــول، وشــوفت الــواد محمــد عبـدالغني بتـاع تانيـة أول وأنـا نـازل، ولما سـألته إذا كان شافه النهارده، قال لي إنه اتقبض عليه.

التفت إليّ بدهشة وسألني:

- نعم؟ اتقبض عليه ازاي؟ وليه؟

التزمـت الصـمت لنحـو دقيقـة وأنـا مرتبـك، فقـال لي رامي:

- في إيه؟

- الــواد عبـدالغني بيقـول إنـه اتقـبض عليـه عشـان اكتشفوا إنه جاسوس.

فـــوجئ رامـــي مـــن كلامـــي وصـــاح بصـــوت شـــبه مسموع:

- جاسوس؟!

سَمعَت "ميس" سهام صوته، دون أن تميز الكلمةَ، فصاحت فيه بغضب:

- رامي.. قوم تعالى.. Come here.

نهض رامي من مكانه وتوجه إليها؛ فقالت له وهي تشير بازدراء إلى سلة المهملات الموجودة بجانب باب الفصل:

- أقف لي هنا ومش عايزة أسمع نَفَس.. Silent.

مرت الدقائق المتبقية من الحصة كساعات ثقيلة تخيلت فيها "ميس" سهام كضفدعة تسابَق أرنبًا تناول منشطات جنسية مستوردة. وأخذت أتبادل نظرات حائرة مع رامي الذي ما إن انتهت الحصة حتى أقبل عليّ مسرعًا وقال:

- أنت متأكد من الموضوع ده؟

- الواد عبدالغني بيقول إنه ساكن في العمارة اللي جنبه وشافه امبارح بالليل وهو بيتقبض عليه.

سمع محمد صفوت حوارنا فتدخل صائحًا:

- مين ده اللي اتقبض عليه؟

رد رامي على الفور:

- أستاذ سيد.. طلع جاسوس لإسرائيل واتقبض عليه امبارح بالليل.

قال سامح عبدالمجيد بذهول:

- جاسوس؟! يا نهار اسود!

قلت لهم بارتباك:

- إحنا كده ممكن نروح في داهية.. ده إحنا كنا بنقعد معاه كتير.

بُهتوا جميعًا والتزموا الصمت الذي قطعه رامي قائلًا:

- تصدق أنا من زمان ماكنتش مستريح له.. كنت كل ما أركز في وشه بالنضارة بتاعته دي أحس إنه يهودي و...

قطع حديثنا دخول أستاذ نبيل، مُدرس الرياضيات، الفصل؛ فجلس كل منا في مكانه.

مــرت بضــع دقــائق وأنــا لا أســتطيع التركيــز في الــدرس الــذي يشرـحه المُــدرس، وانتــابتني مشــاعرٍ مختلطــة بــين الحــيرة والقلــق والحــزن. وقطــع عــليّ أفكاري رامي الذي قال لي هامسًا:

- مش عـارف إحنـا ازاي مـا أخـدناش بالنـا قبـل كـده وكنا بنتعامل معاه عادي؟!

- هناخــد بالنــا إزاي؟! هــو مــاكنش بــاين عليــه حاجــة أصــلًا.. أخصــائي اجتماعــي وعنــده تاكسيـ شغال عليه بعد الضهر عشان يحسن دخله.

- ما هو التاكسي ده يا عبيط.. جايبه تمويه.

- تمويه؟

- آه طبعًــا.. وفي حاجــة كــمان، ركبــت معــاه قبــل كـده وحبيــت أشَــغَّل الكاســيت بتــاع التاكسيـ وأول ما مديت إيدي ع الكاسيت اتخض وزعَّق فيّا.

- وبعدين؟

- أكيد الكاسيت ده كان جهاز إرسال.

حدقت فيـه بعينـين فـزعتين وابتلعـت ريقـي بخـوف قبل أن أقول له:

- يـا نهـار اسـود، ده أنـا ركبـت معـاه قبـل كـده وقلـت لـه إن أبويـا شـغال ظـابط، وكنـت واخـد راحتي في الكلام.

قال لي بقلق واضح:

- قلت له أي معلومات؟

- مش فاكر.. بس كنت بتكلم عادي.

- عادي؟! ما هو العادي ده هو اللي...

وقطـع كلامـه عنـدما شـهقت مـذهولًا وأنـا أنظـر في اتجـاه بـاب الفصـل؛ فالتفـت إلى حيـث أنظـر وفـتح فمه ببلاهـة ولم يحـرك سـاكنًا.. كـان أسـتاذ سـيد قـد دخـل للتـو مـن بـاب الفصـل ووقـف بـالقرب منـه مع أستاذ نبيل الذي سأله:

- إيه كنت فين من الصبح؟

- أبـدًا، كنـت في الإدارة التعليميـة بخلـص شـوية إجراءات كده عشان المسابقة.

- هتعملوها خلاص؟

- آخر الشهر إن شاء الله.

- طب ع البركة.

تمت

«الثلاجة»

كانت المرة الأولى، ولم تكن الأخيرة، كنت في الصف الثالث الإعدادي تلميذ يُقال عنه إنه متفوق، اكتشفت بعد ذلك أنه تفوق وهمي، أو وهم التفوق.

لم أكن أعي شيئًا في الحياة، لم أكن أقرأ غير كتب المدرسة، وأقرأها فقط لأنني مُجبر على قراءتها، فهذا هو روتين الحياة في مصر، تنجبك أمك وفي سن معينة تلقي بك أمام قطار التعليم ليدهسك، من الحضانة إلى الجامعة مرورًا بالمرحلة الإعدادية والثانوية، إنها عربات قطار التعليم التي لا ترحم.

بداية الخروج عن الروتين غير المفهوم كانت حصة العلوم، وبالتحديد درس "الثلاجة"، ذلك الدرس المُمل الذي ندرس فيه مكونات الثلاجة وطريقة عملها.

وكـان التعليـق مـن زمـيلي الفاشـل "محمـد عـلي" لأستاذ عوض، مُدرس المادة:

- ومـاينفعش نحـط الأكـل وهـو سـخن في التلاجـة عشان هتبوظ.

نظر إليه أستاذ عوض بدهشة وقال:

- ليه؟

- أمي اللي دايمًا تقول لي كده.

- لأ غلط، حطه عادى ومش هيجرالها حاجة.

و كـان التعليـق الطريـف المسـتفز مـن زميلنـا رامـي أبوالعلا:

- مين دى؟ أمه؟

- هاهاها.

لم أنشـغل بـإذا مـا كانـت (الـلي مـش هيجرالهـا حاجـة) هـي الثلاجـة أم أُم "محمـد عـلي"، لقـد انشـغلت بموضـوعٍ آخـر، إنهـا أمـي، نعـم أمـي أنـا، وليسـت أم "محمـد عـلي"، ولتـذهب أم "محمـد علي" إلى الجحيم.

لقد كانت أمي تقول لي نفس الشيء:

- ماتحطش الأكل وهو سخن في التلاجة عشان بتبوظ.

والمدرس يقول:

- لأ غلط، حطه عادى ومش هيجرالها حاجة!

وكانت العودة إلى المنزل، العودة المصحوبة بنظراتٍ هي مزيج من الدهشة والتساؤل؛ فمنذ عودتي إلَى المنزل وأنا أنظر لأمي، وأريد أن أسألها لأعرف، ولكنني فَضَّلت الصمت والانتظار.. الانتظار حتى تنتهي من إعداد طعامٍ الغداء.. الطعام الساخن.. يجب أن يكون ساخنًا، ويجب أن أضعه في الثلاجة وهو ساخن، وأنتظر رد فعل أمي.. وكان رد الفعل كالمعتاد، فقد صاحت أمي بي:

- ماتحطش الأكل وهو سخن في التلاجة عشان هتبوظ.

وكانت المواجهة بين رأي أمي، التي تخاف على ثلاجتها، ورأي أستاذ عوض، الذي يُدَرِّس مادة

العلـوم، ولم تغـير أمـي رأيهـا، ولم أسـتذكر أيًـا مـن دروسي في هــذا اليــوم، ولم أســتطع النــوم، كانــت الحــيرة تلــتهم رأسي؛ فطــاردتني صــورة الثلاجــة الملتهبـة حتـى الصباح، حتـى الـذهاب إلى المدرسـة، حتى دخول الفصل، وحتى حصة العلوم.

كان عنـدي أمـل أن يُغـير أسـتاذ عـوض رأيـه ويقـول إنــه كــان يمــزح بــالأمس، ولكنــه أصَّر عــلى رأيــه مؤكــدًا أن الثلاجــة (مــش هيجرالهــا حاجــة).. وانتهــت الحصــة، وتلتهــا حصــة التــاريخ، كانــت حصــة مراجعــة.. الحملــة الفرنســية عــلى مصرــ.. ثــورة ١٩١٩ وقائـدها، سـعد باشـا زغلـول، كنـت أسـتمع إلى الأحـداث بـاهتمامٍ أقـل مـما سبق، حتـى توقفــت فجــأة عنــد الاحــتلال البريطــاني لمصرــ والـذي اسـتمر مـا يقـرب مـن سـبعين سـنة، الإنجليـز ظلــوا في مصرـ مــا يقــارب الســبعين ســنة، وكــانوا بــالطبع يتحــدثون بلغــتهم، ووجــدت نفسيــ أمــام سؤال:

- هـل هـذا ممكـن؟ يحـدثوننا طـوال هـذه الفـترة بلغتهم الإنجليزية ولم نتعلمها؟! وبإتقان؟!

إن محمد علي _سبب المأساة_ لا يعرف حتى الآن الفرق بين bوp، وليس هو وحده، إن معظم طلاب الفصل كذلك، أحمد محمد السعيد الذي لا يفعل شيئًا في حياته سوى المذاكرة، رسب في مادة اللغة الإنجليزية، هل هذا معقول؟!

عُدت إلى المنزل والحيرة تأكل رأسي من ناحية والشك من ناحيةِ أخرى، ولم أستطع المذاكرة؛ فقد كانت الثلاجة بالقرب من مكتبي.

لم أستطع أن أبعد نظري عن الثلاجة، ظلت تطاردني، اقتربت منها بحذر وأنا أدقق النظر إليها، كانت نظراتي مختلفة عن سابقتها _نظرات من يبحث عن سرٍ خطير أو من يحاول اكتشاف حقيقة تائهة.. ولم أعثر على شيء!

فتحت باب الثلاجة على أمل أن أجد بداخلها ما يطفئ ناري، ظللت أدقق النظر بها.. مكرونة، طماطم، زجاجات مياه، محشي، لا لا، ليس هذا ما أبحث عنه، وفجأة صرخت بي أمي:

- أوعى تحط الأكل سخن في التلاجة.

أغلقـــت بـــاب الثلاجـــة مـــذعورًا، وذهبـــت إلى سريري، ولم أستطع النوم.

في اليــوم التــالي كنــت أســير بخطــواتٍ مــترددة في طريقــي إلى المدرســة؛ فوصــلت متــأخرًا، دخلــت مــن بــاب المدرســة، اتجهــت إلى الفصــل، وعنــدما اقتربــت ســمعت صــوت أســتاذ عــوض مــن داخــل الفصــل وهو يقول لزملائي:

- وممكــن عــادى تحــط الأكــل وهــو ســخن في التلاجة، مش هيجرالها حاجة.

توقفــت خــارج الفصــل للحظــات، وتوجهــت إلى باب المدرسة الذي وجدته مازال مفتوحًا.

خرجــت مــن المدرســة.. لم أذهــب إلى الثلاجــة، أقصــد إلى المنــزل.. ولم أكــن أعــرف إلى أيــن أنــا ذاهب.

تمت

«درس تاريخ»

استطاع (محمد علي) أن يحقق رقمًا قياسيًا أبهرنا جميعًا عندما تَحَمَل نحو ٦٥ ضربة بالعصا على يديه من أستاذ عوض، مدرس العلوم، ولم تفلت من عينيه دمعة واحدة رغم قوة الضربات وقسوتها.

وبقدر ما أبهرنا محمد علي بصلابته في ذلك اليوم، بقدر ما أثار سخريتنا في يومٍ آخر عندما فاجأ أستاذ جمال، مدرس التاريخ، بسؤاله قائلًا:

- طب إحنا نعرف منين إن الناس اللي الكتاب بيحكي عنهم دول كانوا موجودين فعلًا؟

بالطبع كان السؤال مفاجئًا لنا ولمُدرس التاريخ الذي سخر من "علي" معتبراً سؤاله إضافة جديدة تضاف إلى خيباته التي اعتاد أن يجنيها في الامتحانات الشفوية والتحريرية المعتادة. وسخر منه وأضحكنا عليه وشجعنا على السخرية منه نحن أيضًا، فكيف يجرؤ محمد علي، التلميذ

البليد في الصف الثالث الإعدادي، على التشكيك في وجود محمد علي باشا _مؤسس الدولة المصرية الحديثة_ وسعد باشا زغلول _قائد ثورة ١٩١٩_ والملك مينا _موحد القطرين_ وغيرهم من عظماء التاريخ؟!

نحن جميعًا متأكدون من أنهم كانوا موجودين وفعلوا ما ذكرت كتب التاريخ أنهم فعلوه، فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن تكذب كتب التاريخ وتختلق أحداث وشخصيات غير حقيقية، الأمر غير قابل للشك إذن.

وحتى بعد أن تجرأ محمد علي وسأل سؤاله الغريب لسنا بحاجة حتى إلى مجرد التفكير في سؤال تلميذ بليد كنا نتنبأ له بالالتحاق بمدرسة الصنايع الثانوية مع أقرانه من الفاشلين.

ومرت السنة الدراسية بأحداثها المعتادة ومحمد علي يُضحكنا من وقتٍ لآخر بأسئلته المدهشة، حتى أنهينا عامنا الدراسي الأخير بالمدرسة الإعدادية والتحق معظمنا بالمدارس الثانوية العامة.

في الشهورِ الأولى لي بالمدرسة الثانوية قابلت محمد علي مصادفةً في الشارع، وابتسمت رغمًا عني قبل أن أسأله عن المدرسة التي التحق بها، وأنا شبه متأكد من أنها مدرسة صنايع، ولكنه فاجأني بقوله:

- أنا دخلت تالتة إعدادي.

لقد رسب محمد علي، وعلمت منه أنه الراسب الوحيد من بين جميع الزملاء في صفنا الثالث الإعدادي.

***

بعد مرور بضع سنوات، وخلال دراستِي الجامعية بكلية التجارة الخارجية، كنت مطالبًا بعمل بحث أجبرني على قراءة كتاب سياسي يحوي بعض المعلومات التاريخية، فوجئت في أحد فصول الكتاب الذي كان يتحدث عن العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ بمعلومة تفيد بأن (أيزنهاور) _رئيس الولايات المتحدة الأمريكية في ذلك الوقت_ هو من أجبر العدوان الثلاثي على الانسحاب من مصر، هذا ما ذكره

الكتاب الذي قام بتأليفه عالم تاريخ معروف، وهو الأمر الذي كان بمثابة صدمة بالغة لي أفقدتني توازني وجعلتني أرجع إلى كتب التاريخ التي درستها في المدرسة، والتي تؤكد أن المقاومة الشعبية الباسلة لشعب بورسعيد هي من نجحت في طرد العدوان الثلاثي من مصر.

وهنا رُحت أفكر لأول مرة في هاتين المعلومتين المتناقضتين، المعلومة الثانية تجزم بأن (أيزنهاور) هو من أجبر العدوان الثلاثي على الانسحاب، ويوضح الكاتب سبب قيامه _أيزنهاور_ بذلك، فقد كان يميل في ذلك الوقت لكفة لعرب ضد إسرائيل التي يعتقد أن العرب سيغرقونها في البحر بمنتهى السهولة.

أما عن المعلومة الأولى فهي أشبه بأحداث بعض الأفلام الهندية أو فيلم (٣٠٠) المبني على أحداث أسطورية، فكيف يستطيع شعب بورسعيد المدني بأسلحته الخفيفة أن يطرد إسرائيل وفرنسا وبريطانيا التي كانت عظمى في ذلك الوقت؟! وكيف صدقت أنا هذه المعلومة وتقبلتها دون أن أفكر فيها ولو لدقيقة واحدة؟! كيف لم

أستيقظ من سباتي العميق عندما سأل محمد علي سؤاله الجهنمي؟! لماذا وثقت في كتب التاريخ هذه الثقة العمياء وكأنها كتبًا سماوية من عند الله؟!

أسئلة كثيرة دارت في رأسي وأنا أتذكر محمد علي ولا أملك إلا الشعور بالندم على سخريتي منه وأتمنى أن أقابله لأعتذر له عما بدر مني في حقه عندما فعل ما كان يجب علينا جميعًا أن نفعله.

تمت

«النتيجة»

كانت الأمور تسير هادئة داخل الفصل، لا تخلو من همهمات بعض الطلاب وأحيانًا ضحكاتهم الخفيفة كلما أعلن مدرس الرياضيات درجة طالب في امتحان الشهر، وكما هو متعارف عليه فإنه «يوم الامتحان يُكرّم المرء أو يُهّان»، لذا كان بعض الطلاب يتوجسون خيفة من نتائج المادة المعروفة بقدرتها على خداع أكثر الطلاب اجتهادًا.

ولكن حسام مصطفى كان جالسًا بلا مبالاة، وكأنه لا ينتمي إلى هذا الفصل أو حتى تلك المدرسة الثانوية الحكومية الكئيبة.

استمر المدرس في إعلان درجات الطلاب واحدًا تلو الآخر، ما بين مرتفعة ومتوسطة ومنخفضة، حتى جاء دور حسام، فنادي المدرس اسمه ثم تبعه بقوله:

-وحدووووه

نهض حسام واقفًا وهو مندهش وسأل المدرس:

-يعني ايه يا أستاذ؟

رد المدرس سريعًا :

-واحد من سبعين يا فالح.

تمت

«صورة»

لم يكــن عمــرو عــز صــديقًا حقيقيّــا لنــا في تلــك الفــترة.. كــما لم نكــن نحــن أيضًــا أصــدقاءَ حقيقيــين لبعضــنا الــبعض، أدركنــا ذلــك في فــترة لاحقــة وبعــدَ أن اكتشــفنا أن الحيــاة بأكملهــا مزيفــة ونحــن جــزءًا متسخًا منها.

وأمَّــا ســبب كراهيتنــا لعمــرو عــز، زميلنــا في الصــف الأول الثــانوي، والــذي يســكن معنــا في نفــس المنطقــة الســكنية حديثــة الإنشــاء، هــو رغبتــه الدائمــة في حــب الظهــور والبقــاء تحــت الأضــواء طــوال الوقــت، والشــعور بــالتميز مــن خــلال جــذب الفتيات إليه بأي طريقة.

ولأن أهــم مــا كــان يميــز عمــرو عــز هــو تفاهتــه ونظرتــه الســطحية لمختلــف الأمــور، فقــد فاجأنــا في أحــد أيــام الجمعــة ونحــن في طريقنــا لــدرس اللغــة الإنجليزيــة الــذي نتلقــاه في مركــز تعليمــي غــير مــرخص، وهــو يرتــدي (تيشــيرت) وصــفناها بأنَّهــا فاضحة.

في هـذا اليـوم مـررت أنـا وأحمـد شـكري وحسـن غريــب بمنــزل (عــز) في تمــام السـاعة التاســعة والنصف صباحًا فنـزل لنـا مـن العـمارة التـي يسـكن بهـا وهـو يبتسـم ابتسـامة عريضـة لم نعـرف سـببها إلَّا بعد أن رأينا (التيشيرت) من الخلف.

كنـا نسـير جميعًـا عـلى مهـل في طريقنـا للـدرس، باسـتثناء عمـرو عـز الـذي لاحظنـا أنَّـه يسرـع في خطوتـه بشـكل غريـب، وفوجئنـا بالتيشـيرت ذات اللـون اللبنـي التـي يرتـديها وقـد تزينـت بصـورة مطبوعـة عليهـا مـن الخلـف لشـاب وفتـاة تجمعهـما قُبلة ساخنة.

كـان كـل منـا يعـرف أخـلاق الآخـر جيـدًا، ولكننـا لم نكـن نتوقـع أن يكشـف عمـرو عـز عـن حقيقتـه بهـذا الأسـلوب الفـج، ولـذا فوجئنـا بالصـورة، فقلـت له مذهولًا:

- إيـه ده يـلا يـا عمـرو! حـاطط صـورة سـكس ع التيشيرت؟!!

ضـحك عمـرو عـز ومعـه أحمـد شـكري الـذي قـال له:

- إنت عبيط يلا، هتروح الدرس كده!

ابتسم عمرو ونظر لحسن غريب وقال له:

- مش عايز تقول حاجة إنت كمان؟

رد عليه حسن قائلًا:

- لأ خليني ساكت أحسن.

فقال عمرو وهو ما زال يبتسم:

- والله تبقى عملت طيب، وياريت تسكتوا إنتوا كمان، يلا عشان ما نتأخرش.

وتابع سيره في اتجاه المركز التعليمي ونحن خلفه نتباطأ في مشيتنا وكأننا نهرب من فضيحة المشي بجانبه، وقلت لهما بصوت منخفض:

- ابن العبيطة ده هيفضحنا!

فقال أحمد شكري:

- يا عم إحنا مالنا... هو عامل كده عشان البنات اللي في الدرس، وآدي دقني لو واحدة منهم عبرته.

لمحت السعادة على وجه حسن غريب الذي كان يضمر الشر والكراهية للجميع، ولم أستطع أن أخفي قلقي واشمئزازي من عمرو عز الذي كان يسير بسرعة وكأنَّه يتعجل نظرات احتقار الفتيات له. وبمجرد وصولنا إلى المركز اقتربت منه وقلت له:

- بص إحنا أول ما ندخل القاعة إنت تقعد ورا كده من غير ما حد ياخد باله من الصورة اللي ع التيشيرت.

ابتسم أحمد شكري في حين تجاهل عمرو عز نصيحتي التي لم أقلها إلا رغبةً مني في الحفاظ على مظهري أمام الفتيات اللواتي يعرفن أنني صديق له.

دخلنا جميعًا إلى قاعة المحاضرات الصغيرة التي لا تتسع لأكثر من ١٢ طالب، وجلسنا في أماكننا دون أن ترى أي فتاة التيشيرت الفاضح، وهو ما جعلني أتنفس الصعداء وأشعر بشيء من الاطمئنان.

ودخل المدرس الذي أزعجنا كثيراً بحديثه، من آن لآخر، عن خطيبته التي تشعر بالضيق لانشغاله عنها بالدروس الخصوصية، بالإضافة إلى بعض الحكايات الاستعراضية التي لم يكن يمل منها.

وانتهى من شرح جزء من الدرس وأعطانا فترة راحة ١٠ دقائق سمح لنا فيها بالخروج من قاعة المحاضرات وتناول المشروبات في بوفيه المركز، فهم عمرو عز بالنهوض من مكانه فأمسكته من ذراعه بقوة:

- رايح فين؟

- هطلع أشرب حاجة ساقعة.

- مش لازم.

- هو إيه اللي مش لازم؟ عطشان.

جذبته من ذراعه بقوة أكثر وأجبرته على الجلوس ووقفت:

- خليك إنت قاعد هنا وأنا هروح أجيب لك.

استسلم عمرو عز لرغبتي ونظر إليّ بضيق:

- طيب... ما تتأخرش لا تلاقيني عندك.

وقبـــل أن أخـــرج اقتربـــت مـــن أحمـــد شـــكري وهمست له:

- أوعـــى تســـيب ابـــن الكلـــب ده يخـــرج، مـــش عايزين فضايح

حرك (شكري) رأسه علامة الموافقة وهو يضحك:

- ماشي.

خرجـــت مـــن القاعـــة وذهبـــت للبوفيـــه واشـــتريت زجاجـة ميـاه غازيـة لعمـرو عـز وعـدت إليـه فنظـر لي بغضب مفتعل:

- إيه ده أنا مابشربش بيبسي، عايز كوكاكولا.

نظرت إليه بدهشة:

- إنت مش قلت عايز حاجة ساقعة يالا؟

- أيوه بس مش بيبس، عايز كوكاكولا.

- وإيه الفرق؟ ما الاتنين زي بعض.

- لأ... أنا مش بحب البيبس.

- يـــا عمـــرو والنبـــي مـــا تخنقنـــيش، الاتنـــين واحـــد ودي اتفتحت خلاص.

- ماليش دعوة، اشربها إنت.

وهَم بالنهوض من مكانه:

- هروح أنا أجيب لنفسي

دفعتــه في كتفــه وأجبرتــه عــلى الجلــوس وأنــا أستشيط غضباً:

- لأ استنى، وحياة أمك ما هتخرج، هجيب لك الكوكا زفت.

- وأدرت له ظهري للخروج من القاعة فسمعته يقول:

- أستغفر الله العظيم.

التفت إليه ونظرت له بغضب فوجدته يبتسم بطريقة مستفزة:

- حرام تقول على نعمة ربنا زفت!

كتمت غضبي بداخلي وأعطيت زجاجة المياه الغازية لأحمد شكري:

- اشرب.

أخـذها (شـكري) وهـو يضـحك وخرجـت أنـا وعُـدت بعـد أقـل مـن دقيقتـين ومعـي زجاجـة ميـاه غازيـة من النـوع الـذي طلبـه عمـرو عـز ومـددت يـدي لـه بالزجاجة ففاجأني بقوله:

- إيه ده ما جيبتش معاها مولتو؟

قلت له بغضب وبصوت منخفض:

- بقـول لـك إيـه، وحيـاة أمـك مـا هخـرج تـاني، أنـا مـش شـغال عنـد الـلي خلفـوك، ووحيـاة أبـوك مـا هتخـرح إنـت كـمان مـن القاعـة دي غـير لمـا الـدرس يخلص.

كان معنـى خـروح عمـرو عـز مـن القاعـة أن يعطـي ظهـره للفتيـات ويـريهم الصـورة الفاضـحة التـي تـزين التيشـيرت، وهـو مـا كنـت أحـاول أن أمنعـه بأي شكل.

عـاد المـدرس إلى القاعـة ومعـه كـوب شـاي وضـعه عـلى المنضـدة الصـغيرة بجانبـه ونظـر للسـبورة وقال:

- حد يقوم يمسح السبورة.

وبمجرد أن انتهى من جملته نهض عمرو عز من مكانه وتوجه للسبورة بسرعة كبيرة سبقت أي محاولة لي لمنعه أو حتى مجرد التفكير.

تقدم عمرو عز بثقة إلى السبورة وأخذ في مسح الكلام عليها وهو يعطي ظهره لنا ونحن ننظر لبعض في ذهول وخجل، وهو ما حدث أيضًا مع الفتيات اللواتي نظرن لبعضهن وللصورة على التيشيرت.

وعاد عمرو إلى مقعده بجانبي وهو يشعر بالزهو وانحنى ليلتقط زجاجة المياه الغازية التي تركها بجانب قدمي فانحنيت أنا الآخر ودفعت يده بغضب والتقطت الزجاجة وأنا أهمس له:

- كان في وخلص يا روح أمك.

نظر أمامه إلى المدرس الذي يشرح الدرس وهو يبتسم ابتسامة عريضة تبعها بنظرات متفرقات للفتيات الجالسات معنا في القاعة. حتى انتهى الدرس وسِمح لنا بمغادرة القاعة فوقف عمرو عز وأسرع بالخروج لكي يكمل عرضه للتيشيرت، بينما جلست أنا مستسلمًا لا أقوى على النهوض

مـن مكـاني حتـى التفـت لي أحمـد شـكري وهـو يبتسم وقال لي:

- يا عم كبر دماغك.

- بعـد كـده مـش هنعـدي عـلى ابـن الوسـخة ده واحنا جايين، وإلا مش هاجي الدرس ده تاني.

- ماشي، يلا عشان نلحق الصلاة.

أمسـك شـكري بيـدي وجـذبني لأقـوم مـن مكـاني وخرجنـا مـع حسـن غريـب وتوجهنـا للمسـجد للحـاق بصلاة الجمعـة التـي لم نكـن نصلي غيرهـا، وبعـد الصـلاة تجمعنـا نحـن الثلاثـة مـع بعـض الأصدقاء بـالقرب مـن المسجد ففوجئنـا بعمـرو عـز يخـرج مـن المسـجد مرتـديًا جلبابًـا ناصـع البيـاض ممسكًا في يده مسبحة وينضم إلينا:

- السلام عليكم.

نظرت إليه بدهشة واستنكار:

- وحياة أمك!

فنظر إليّ وضرب كفًا بكف، وقال:

- أستغفر الله العظيم.

لم أتمالك نفسي من الغضب والدهشة وقررت الانصراف على الفور وتركتهم.

ذهبنا إلى المدرسة في اليوم التالي ووجدنا حكاية تيشيرت عمرو عز قد انتشرت بين طلاب الفصل الذين استقبلوها بمشاعر متباينة بين معجب وساخر ومستنكر ولا مبالي، ووجدت أنَّه من الأفضل أن أتجاهل عمرو عز وحكاياته المزعجة وأتعامل معه فقط كزميل في الفصل، وهو ما حدث بالفعل حتَّى جاء يوم الخميس وتذكرت درس الإنجليزي في اليوم التالي وأكدت على أحمد شكري أنني لن أذهب إلى الدرس مع عمرو عز مهما حدث، وأنه إذا أصر على الذهاب للدرس معه فإنني سأترك الدرس بشكل نهائي:

- يا عم عادي كبر دماغك.

- خلاص يا أحمد أنا مش هاجي أم الدرس ده، كفايه إني مستحمل المُدرس أبو حكايات حمضانة ده، مش هيبقى هو وعمرو زفت الطين ده كمان.

- ما احنا كده كده هنقابله هناك.

- عادي نقابله زيه زي أي حد إنما أنا مش همشي معاه وأحرج نفسي قصاد البنات... زمانهم دلوقت بيبصوا لنا كلنا باحتقار بسبب ابن الوسخة ده.

- طيب خلاص، مش هنعدي عليه.

استيقظت صباح يوم الجمعة وارتديت ملابسي وتوجهت لمنزل أحمد شكري الذي نزل لي ومررنا بمنزل حسن غريب الذي طلب مننا المرور بمنزل عمرو عز فقلت له بضيق:

- عايز تعدي عليه روح إنت لوحدك، ولو أحمد عايز يروح معاك هو حر برضه، بس أنا مش عايز أعرف الواد ده تاني.

- ما هو في طريقنا يا عم محمد.

- لا طريقنا ولا زفت، احنا كنا بنلف اللفة دي عشان نعدي عليه مش أكتر.

- طيب خلاص يلعن أبوه على أبو الدرس، يلا نروح من الطريق التاني.

- قصدك الأولاني.

توجهنــا إلى الــدرس وأنــا أتمنــى ألّا يــأتي عمــرو عــز مــرة أخــرى، وأتوقــع أن يصــل إلى المركــز متــأخراً بعــد أن يكون قـد انتظرنـا طـويلًا وفقـد الأمـل في وصـولنا إليه وقرر الذهاب بمفرده.

وصــلنا إلى المركــز قبــل بــدء المحــاضرة بنحــو ربــع الســاعة وفي طريقنــا إلى قاعــة المحــاضرات مررنــا بالبوفيــه وفوجئنــا بعمــرو عــز يقــف مــع ثلاثــة فتيــات ممــن شــاهدوا عــرض التيشــيرت الفاضــح، وبــدت علــيهن الســعادة الشــديدة وهــن يضــحكن مــع عمــرو عــز الــذي كنــا نعــرف جيــدًا أنّــه ثقيــل الظل ولا يجيد فن الإضحاك نهائيّا.

تمت

«الساعة الثامنة صباحًا»

الاستيقاظ مبكرًا في فصل الشتاء لعنة لا يوجد ألعن منها سوى الاستيقاظ مبكرًا في فصل الشتاء لتذهب إلى الكُلية وتستمع إلى هراءات من شخص غالبًا ما يكون مريضًا نفسيًا وأنت تجلس بين مجموعة من المرضى النفسيين الآخرين الذين يظنون أن نجاحهم بتقدير مرتفع سيجعل منهم مواطنين درجة أولى.

ولا شك أن لعنة اليوم لم تكن لتكتمل بدون أن تستقل مترو الأنفاق المزدحم لمسافة تزيد عن الـ١٥ محطة لتتأكد أنك شخص ملعون لا يتمتع بأي قدرٍ من الرفاهية.

ولكي تصبح اللعنة مكتملة الأركان تعَطَّل المترو في محطة طرة الأسمنت وتوقف لنحو ٢٠ دقيقة مرت عليّ كأنها ٢٠ ساعة صيفية شديدة الحرارة وأنا أفكر في المحاضرة التي ستبدأ في الساعة الثامنة ولن يسمح الدكتور بدخول أحد بعده

وكأنـه سـيدة مكتملـة الأنوثـة تخشى عـلى مؤخرتهـا المكتنزة من نظراتنا الثاقبة.

تحـرك المـترو أخـيراً ووصـلت إلى الكليـة في تمـام الثامنـة فأسرعـت الخُطـى متوجهًـا إلى قاعـة المحـاضرات لأصـل إليهـا بعـد نحـو ٧ دقـائق ولأجـد بابهـا مغلقًا يـأتي مـن خلفـه صـوت الـدكتور الأجـش وهو يعنف الطلاب الجالسين أمامه.

وقفـت أمـام القاعـة أل*عـن حظـي العـاثر ولا أجـرؤ عـلى طـرق بابهـا وأنـا متأكـد مـن أن الـدكتِور لـن يسـمح لي بالـدخول. وبعـد ١٠ دقـائق تقريبًـا جـاء مـن خلفـي زميـل لا أعرفـه وطـرق البـاب، وكانـت المفاجـأة أن سـمح لـه الـدكتور بالـدخول، فتشـجعت وطرقـت البـاب بعـد أقـل مـن دقيقـة واسـتأذنت في الـدخول فنظـر إليّ الـدكتور بغضـبٍ وقال بعجرفة:

-ما حدش بيدخل بعدي.

أغلقت البـاب وعُـدت أقـف حيـث كنـت وأنـا ألعـن كل شيء حتى نفسي، وتذكرت أن

«الأبــــواب لــــن تُفــــتح أمامــــك إلا إذا طرقتها».

تمت

«ابن البلد»

كنا نجلس في قاعة المحاضرات مع طلبة قسم الإخراج، من باب حب الاستطلاع لا أكثر، خصوصًا أن مدرس مادة الإخراج بقصر الثقافة الذي كنا ندرس به، كان كاتب سيناريو فاز بجائزة في إحدى المسابقات الثقافية المعروفة.

كان الأستاذ عصام، المدرس، قد بدأ منذ فترة قصيرة طرق أبواب الوسط الفني وبدأ العمل كمخرج منفذ في مسلسل من بطولة مطرب معروف، فنظرنا إليه كنموذج ومثل أعلى وأخذنا نستمع إليه باهتمام ونسأله رغبةً في التعلم الحقيقي وليس بدافع إظهار الذات والتودد إليه.

كان مدير قصر الثقافة ممثل نصف مشهور قرر أن ينتج مسلسل تليفزيوني لهذا المطرب المعروف، وطلب من عصام أن ينضم إلى فريق عمل المسلسل فوافق على الفور وبدأوا مرحلة التحضير للعمل، لذا لم يكن مفاجئًا لنا أن نرى ذلك المطرب المشهور يدخل إلى قاعة المحاضرات

بصحبة مدير القصر، فنظرنا إليه بقليل من الدهشة والانبهار، فظهرت عليه بوادر الإحباط وخيبة الأمل وهو يجد نفسه يُعامل معاملة غير المشهورين، فنظر إلينا عصام وقال: الفنان م.ف يا جماعة نحييه مع بعض.

لم نجد بدًا من التصفيق بفتور للمطرب الذي ابتسم وألقى "إيفيه" سخيف اضطررنا للضحك عليه استكمالًا لحالة المجاملة التي فُرضت علينا.

انتهت زيارة المطرب ومدير القصر سريعًا وخرجا معًا من قاعة المحاضرات وأنا أتبعهما بنظري بعد أن لفتت انتباهي الملابس السوداء التي كان يرتديها المطرب لكي يخفي وزنه الزائد، إلا أن ما لفت انتباهي أكثر أنه لم يكن متواضعًا كما يُظهر في البرامج التليفزيونية التي يطل علينا من خلالها وهو يرتدي قناع ابن البلد البسيط المتواضع.

تمت

«مدرسة حكومية»

"مدرسة حكومية أم خاصة أم تجريبية أم لغات أم إنترناشيونال"؟!

سؤال تقليدي يرى أولياء الأمور في بلدنا _التي نعاني الأمرين منذ عرفناها_ أنهم مطالبون بالإجابة عنه. وعن نفسي، وجدت أن السؤال الأهم هو: هل يوجد تعليم جيد في مصر؟

أجبت السؤال بضميرٍ مستريح وقلت لنفسي: لا.. لا يوجد تعليم جيد في مصر، ولنعتمد على أنفسنا إذن ونجرب في أبناءنا ذلك النظام الجديد الآخذ في الانتشار والمسمى homeschooling أو التعليم من المنزل، وعلى أي حال فالتجارب ليست جديدة علينا، فالحكومات المختلفة أجرت وما زالت تُجري علينا التجارب، ولا نملك أمام تجاربها إلا الخضوع كالفئران الذليلة.

- أنا مش هوديه مدرسة أصلًا.

هـذا مـا قلتـه لزوجتـي التـي تفكـر مثـل معظـم الأمهـات في مصر، والتـي أرادت لابننـا الأكـبر أن يلتحـق بمدرسـة باهظـة المصروفات لـكي تكـون مطمئنة، وربما لكي تتباهى أمام الأخريات أيضًا.

ردَّت عليّ بدهشة:

- يعني إيه؟!

- مـش لازم مدرسـة، مـا إحنـا بنجيـب لـه مُدرِسـة في البيت أهو.

- هو ينفع مايروحش مدرسة؟!

- هنقـدم لـه في مدرسـة حكومـة مصـاريفها قليلـة، ويبقى يروح الامتحانات بس.

- ازاي يعنـي؟! ويقعـد كـده مـا يخـتلطش بحـد ولا يشوف الناس؟!

- مـا هـو بـيروح النـادي وبيخـتلط بالعيـال، المهـم انه يتعلم كويس مش انه يروح مدرسة.

لم تقتنـع، ولكننـي كنـت قـد اتخـذت قـراري، وعنـدما حـان موعـد التقـديم ذهبـت إلى أقـرب مدرسة حكومية.

بمجرد أن دخلت من باب المدرسة المُتَسخ، ورأيت حالتها التي يرثى لها، فكرت في كَلام زوجتي عن ضرورة إلحاق ابننا بمدرسة خاصة، ولكنني قاومت تلك الفكرة وقلت لنفسي:

- هو كده كده مش هييجي، مافيش داعي لدفع مصاريف كتيرة في المدارس الخاصة، الفلوس دي أنا هوفرها وأصرفها عليه في حاجة تفيده.

سألت رجل أربعيني يرتدي جلباباً _هو أول شخص قابلني في المدرسة_ عن طريقة التقديم للصف الأول الابتدائي؛ فقال لي:

- حضرتك بتجيب شهادة ميلاد العيل وصورة بطاقة الأب وصورة بطاقة الأم وشهادة صحية و......

قاطعته بارتباك:

- طب معلش ممكن تكتب لي كل الحاجات دي في ورقة؟

أخرج من جيب بنطاله ورقة "مكرمشة" وقلمًا وكتب لي قائمة قصيرة بالأوراق المطلوبة، تناولتها منه ونظرت بها وأنا أقول له:

- شكرًا جدًا، ألف شكر، أجيبهم إمتى بقى؟

- يوم الأحد والأربعاء من الساعة ٩ كده لحد ١٢.

- طب بالنسبة للشهادة الصحية دي أجيبها منين؟

- ممكن تجيبها من الصحة، بس مشوار وهتاخد وقت، أنا ببيعها بخمسين جنيه لو عايز.

شعرت أنني أتعرض لعملية استغلال، فسألته بتردد:

- خمسين؟ هي تمنها كام أصلًا؟

رد عليّ باستياء وهو يهم بالانصراف:

- معرفش، روح اسأل في الصحة، وأنت وحظك بقى.

استوقفته معلنًا انتصاره عليّ وقلت له مستسلمًا:

- استنى بس، هي معاك دلوقت؟

- أيوه.

- طب مكتوب في الورقة شهادة صحية وطوابع!

- موجودة بالطوابع، عايزها ولا هتروح الصحة؟

اشتريت الشهادة الصحية والطوابع منه، وانصرفت وأنا أضع الورقة التي كتبها بيده في حافظة نقودي، وأتمتم باستنكار:

- أول القصيدة كُفر، اتقلّبت في خمسين جنيه من أولها، الفراش قلبني في خمسين جنيه، أومال مدير المدرسة هيعمل ايه؟!

لم أنتظر كثيراً لأعرف إجابة سؤالي؛ فقد جاء يوم الأربعاء بعد يومين لأذهب إلى المدرسة في الساعة العاشرة ومعي ملف يحوي الأوراق المطلوبة.

دخلت من باب المدرسة بخطوات مترددة وأنا أبذل مجهودًا لأطرد من رأسي فكَرة المدرسة الخاصة، وسألت سيدة، ترتدي ملابس بسيطة

وتصطحب ولدًا في عمر ابني، عن مكان التقديم فأشارت في نفس اتجاه سيرها، وقالت:

- في المكتب اللي ع الشمال ده.

تبعتها إلى المكتب، الذي عرفت أنه مكتب مدير المدرسة، وما إن وصلنا حتى وجدت بعض الازدحام أمام مكتب المدير الخمسيني الأصلع الذي يتمتع بقدرٍ من البدانة.

انتظرت بعض الوقت أمام المكتب، وعندما جاء دور السيدة التي عرفت أنها جاءت لتسليم أوراق ابنها مثلما جئت، اقتربت أكثر من الباب وأنا أحاول إنصات السمع لحوارها مع المدير.

أخذ المدير ملف الأوراق منها وتفحصه ليتأكد من اكتمالها، وعندما انتهى نظر إلى السيدة وإلى ابنها، وقال:

- تمام، هتخرجي برة عند أي مكتبة وتجيبي ١٠ مقشات أو رزمتين ورق أبيض وترجعي لي.

نَظَرَت له السيدة نظرات هي مزيج من الدهشة والتساؤل والضيق، فقال لها بغضب:

- إيه مالك؟ يلا كله بيجيب.

فَهِمت أن المدير يأخذ هذه الرشاوى الزهيدة للمدرسة كنوع من التبرعات الإجبارية لقبول التلاميذ بها، وانتابتني حالة من الغضب وقررت على الفور أن أعدل عن قرار إلحاق ابني بهذه المدرسة، ولكن بعد أن أتشاجر مع المدير وأهدده بفضح أمره والإبلاغ عنه.

وقلت لنفسي:

- ده مدير مدرسة ده؟! لما مدير المدرسة يسرق الناس عيني عينك كده، أومال المدرسين بيعملوا إيه؟ وهيتعاملوا مع العيال ازاي؟ ولو مدرس عمل حاجة غلط أولياء الأمور هيشتكوه لمين؟!

ورغم أنني كنت قد اتخذت قراري قبل المجيء لهذه المدرسة بأن ابني لن يأتي إلّا لحضور الامتحانات فقط، إلا إنني شعرت بالاستياء والخوف، لدرجة أنني تخيلت نفسي- في حلم من أحلام يقظتي وأنا أخرج من تحت ملابسي- سكيناً كبيراً أشق به صدر هذا المدير مثلما فعل (فيتو

كورليـوني) مـع (دون تشيشـيو) في الجـزء الثـاني مـن فيلم Godfather.

همّـت السـيدة بـالخروج مـن مكتـب المـدير الـذي استوقفها وهو يملأ أوراقًا أمامه:

- هو أبوه بيشتغل إيه؟

التفتت إليه السيدة وقالت:

- أبوه كان عامل على باب الله، الله يرحمه.

بـدا عـلى وجـه المـدير الخجـل والتعـاطف ونظـر إليها بإشفاق وقال:

- طب اتفضلي أقعدي.

- طب هروِح أجيب المقشات الأول.

- لألأ خلاص مش لازم، اتفضلي.

وغمغم بخجل:

- مش تقولي يا ستي من الأول؟

أنهـى المـدير إجـراءات قبـول ابـن السـيدة البسـيطة وقال لها:

- كـده تمـام يـا سـت الكـل، المفـروض المصـاريف هتتـدفع يـوم ١٥ عشـان تسـتلمي لـه الكتـب، مـاتبقيش تـدفعي، ابقـي عـدي عليـا هنـا وأنـا هخلص لك كل حاجة.

خرجـت السـيدة وهـي سـعيدة، وجـاء دوري لأقـف أمام المدير الذي تفحص أوراقي، وقال لي بتردد:

- هنحتـاج مـن حضرـتك رزمتـين ورق أبـيض.. للمدرسة طبعًا.

قلت له مستسلمًا راضيًا:

- تمام، ١٠ دقايق وأرجع لحضرتك.

خرجـت مـن المدرسـة، واشـتريت رزمتـين مـن الـورق وعشرـ مكـانس يدويـة (مقشـات)، وعُـدت للمـدير، ووضـعت المكـانس في أحـد جوانـب الحجـرة والـورق أمامـه عـلى المكتـب؛ فنظـر للمكـانس بدهشة وقال:

- إيه ده؟

- لأ عـادي، حاجـة بسـيطة كـده، وتحـت أمـرك في أي حاجة.

ابتسم بامتنان، وقال لي بشيء من الخجل:

- كله للأولاد والله.

- ولا يهمك.

أنهيـــت الإجــراءات، وغــادرت المدرســة راضــيًا وأنــا أقــول لنفسي- إن الأمــر لــيس ســيئًا للدرجــة التــي تصورتها.

تمت

"أي تشابه بين شخصيات وأحداث هذه الأعمال وأية شخصيات وأحداث على أرض الواقع هو مجرد صدفة غير مقصودة"

محمد شريف

للتواصل مع الكاتب

mohamedsharif1987000@gmail.com

أعمال أخرى للكاتب

قميص مشجَّر (مجموعة قصصية)

الخوف (مجموعة قصصية)

كعب عالي (مجموعة قصصية)

سـينما ٩٠ (نظـرة على أفـلام التسـعينيات في السـينما المصرية) – مقالات سينمائية

ثرثـــرات ســـينمائية (عـــن الأفـــلام واللـــي عملوهـــا) - مقالات سينمائية

الفهرس

- الطريق	٥
- النافذة	١٧
- كراسة حساب	٢٧
- قميص مشجر	٤٥
- أول الطابور	٥١
- الصف الأخير	٦٧
- الوجه الآخر	٧٣
- ساعة يد	٧٩
- الامتحان	٨١
- مرض نادر	٨٩
- الجاسوس	٩٣
- الثلاجة	١٠١
- درس تاريخ	١٠٧
- النتيجة	١١٣
- صورة	١١٥
- الساعة الثامنة صباحًا	١٢٩
- ابن البلد	١٣٣
- مدرسة حكومية	١٣٥